إحسان عبد القدوس

شىء فى صدرى

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى (الفجالة)

سعيد جوده السحار وشركاه

دار مصر للطباعة

٣٧ شارع كامل صدقى

مقدمة

الراسمالية والعذاب

اكثر شيء اكرهه هو مقدمات الكتب .. ولا اذكر اننى قرأت مقدمة لكتاب او لقصة ، سواء اكان صاحبها كاتبا كبيرا ام صغيرا .. الا فى حالات نادرة .. ولا اذكر أننى كتبت مقدمة لكتاب الا تحت الحاح شديد من الناشر .. الحاح يبلغ حد الضغط والارهاب ...

انى عندما ابدا فى قراءة كتاب احب ان ادخل مباشرة فى موضوعه ، بلا مقدمات .. واعتقد ان هذا هو ما يفعله اغلب القراء ..

ورغم ذلك .. فقد احسست انى فى حاجة الى كتابة مقدمة لقصة « شيء فى صدرى » . لا لأن القصة فى حاجة الى مقدمة ، ولكن لأن لى رايا اريد ان اقوله بمناسبة نشر القصة .

***

كيف بدات افكر فى موضوع « شيء فى صدرى » .. ؟

لقد ساءلت نفسى يوما : هل يمكن ان يكون الرجل الراسمالى سعيدا ؟

وقبل ان اجيب عدت اسائل نفسى : ما هى الراسمالية ؟ ما هو اساس التفكير الراسمالى ؟

واجبت : الراسمالية هى الحرية الفردية ..

وهذا صحيح ... فان اساس التفكير الراسمالى هو الحرية الفردية .. والأفراد فى نظر التفكير الراسمالى .. لا يمكن أن يتساووا .. ولا يمكن أن يكونوا كأسنان المشط .. ان الافراد يختلفون فى قواهم العقلية ، وفى قواهم البدنية ، وفى امزجتهم ، وفى أعصابهم .. هناك فرد عبقرى ، وفرد عادى .. ومن الخطأ أن نقيد الفرد العبقرى ليعيش فى نفس الحدود التى يعيش فيها الفرد العادى ، بل يجب ان نطلق له الحرية ليمارس عبقريته ..

وقد يستفيد الفرد من عبقريته فائدة خاصة . قد يصبح مليونيرا .. ولكن الذى لا شك فيه أن المجتمع سيستفيد ايضا من هذه العبقرية .. ان صاحب الشركة قد يكسب منها ملايين الجنيهات ، ولكنه ليس وحده الذى يكسب ، بل هناك مئات العمال وهناك الموظفون والمستهلكون والمنتجون ، يكسبون معه .

ولكن ..

الى اى مدى يمكن ان نطلق حرية الفرد ؟

ليس هناك حرية فردية مطلقة حتى فى الدول الراسمالية .. فى الدول الراسمالية قوانين للضرائب وقوانين للعمال وقوانين لمنع الاحتكارات و .. و .. وكل هذه قوانين تحد من حرية الفرد .. وتحد من استغلال الفرد لعبقريته وقواه .. وكما أن القانون يمنع الرجل القوى العضلات من الاعتداء على شخص ضعيف بلا سبب ، فان القانون يحاول ايضا أن يمنع الشخص الشديد الذكاء ، أو العبقرى ، من الاعتداء بذكائه على شخص غبى ، أو على شخص اقل منه ذكاء .

ولكن ...

ان العباقرة — أو اصحاب رءوس الأموال الكبيرة — فى الدول

الراسمالية ، تتجمع مصالحهم ، وتتحد أهدافهم وتقاليدهم ، ويتوارثون رءوس الأموال ابنا عن اب ، الى أن يصبحوا طبقة اجتماعية خاصة .. الى ان يصبحوا بمثابة شعب آخر داخل الشعب .. وبحكم قوة مصالح هذه الطبقة ومضاء الأسلحة التى تشق بها طريقها ، تستطيع ان تسيطر على الدولة .. الدولة بجميع اجهزتها ، بما فيهـا جهاز السـلطة التشريعية النيابية .. فاذا سيطرت على الدولة سيطرت على القانون .. ويصبح القانون اضعف منها .. بل انها تسيطر ايضا على المجتمع كله ، بسيطرتها على المدارس والجامعات والصحافة والاذاعة ، وباقى ادوات توجيه الراى العام ..

وعندئذ تنهار نظرية الحرية الفردية .. لأنها لا تصبح حرية فردية ، بل تصبح حرية طبقية .. حرية طبقة واحدة تحتكر رءوس الاموال .. وتحتكر العبترية .. فاذا فرض ان ظهر فرد عبقرى خارج هذه الطبقة ، وحاول أن يمارس عبتريته ، ليصبح يوما ما مليونيرا ، وجد الأبواب كلها مغلقة أمامه ، لأن الطبقة التى تحتكر العبترية يهمها الا يدخل فيها شخص جديد قد ينتقص من ارباح شخص آخر داخل الطبقة .. ذلك لأن عدد الملايين .. ملايين الجنيهات .. فى كل دولة محدود ، مهما كان هذا العدد ضخما .. فاذا فرضنا ان عدد الملايين عشرة ، يملكها عشرة افراد ، كل فرد يملك مليونا .. فان اى فرد ينضم الى هؤلاء العشرة سيأخذ من نصيب واحد منهم او من نصيب كل منهم ..

ولذلك فان الملاحظ فى الدولة الراسمالية .. كالولايات المتحدة مثلا ، ان رءوس الأموال فيها متوارثة ، ومحصورة فى عدد قليل من الأسر .. ولم تستطع ضريبة التركات ان تفتت الثروة من أيدى هذه الأسر ، رغم ان الهدف الأساسى من هذه الضريبة هو التغلب على احتكار عدد معين من الأسر لثروة البلد .. ولكن :

بما ان هذه الطبقة اقوى من الدولة ، واقوى من القانون ، فهى ايضا اقوى من ضريبة التركات ..

وبهذا تنقلب النظرية الراسمالية ، الى نظرية احتكارية استغلالية ..

ولهذا فان كثيرا من الثورات التى قامت .. كالثورة المصرية مثلا .. لم يكن هدفها القضاء على الراسمالية كنظرية تعتمد على حرية الفرد فى استغلال طاقته ، بل كان هدفها التخلص من سيطرة الطبقة الراسمالية على نظام الدولة ، وبالتالى القضاء على احتكار هذه الطبقة واستغلالها ..

***

كل هذا الكلام استعدته فى ذهنى ، لا لاعد بحثا عن النظام الراسمالى ، بل لاصل الى السؤال الذى بدات به :

ــ هل يمكن ان يكون الرجل الراسمالى سعيدا ، هل يمكن ان يكون الفرد داخل هذه الطبقة الراسمالية الاحتكارية الاستغلالية ، فردا سعيدا ؟

واجبت نفسى :

ــ لا ...

فانا لا اومن بأن هناك فردية مطلقة .. فكما انه ليست هناك حرية مطلقة ، فليست هناك كذلك فردية مطلقة .. ان الجسد الواحد يضم فى داخله مجتمعا كاملا .. يضم انعكاسات نفسية يطلقها المجتمع كله كوحدة .. ان احساس الفرد هو نتيجة تفاعلات احساس المجتمع .. احساس الملايين ، بكل ما فى هذا الاحساس من رواسب الماضى .. رواسب الدين والتقاليد ، وقصص الشاطر حسن وامنا الغولة .. !!

ليس هناك ما يسمى « انا » .. ان « انا » هذه ليست الا ملايين من الناس يتناقش بعضهم مع بعض .. بينهم رجل شرير .. وبينهم رجل خير .. وبينهم رجل ذكى ، وبينهم رجل

غبى .. وبينهم رجل ضعيف ، وبينهم رجل قوى .. كل هؤلاء يتناقشون ، ويتصايحون ويتعاركون .. داخل الجسد الواحد .. ثم يتغلب احدهم على الآخرين ، فيصدر حكمه الى العقل والى اللسان ، والى اعضاء الجسم . وعلى أساس هذا الحكم ، يتصرف الفرد تصرفا معينا .. هذا التصرف هو ما يسمى « أنا » ..

وقد يكون الرجل الذى أصدر حكمه هو الرجل الشرير ، فيبقى الرجل الخير داخل الجسد يصرخ محتجا ، ويبكى ، ويعاتب .. ويعذب الفرد ..

ان الانسان يظل دائما ضحية تنازع الخير والشر فى داخله .. وليس هناك فرد كله شر أو انسان كله خير . والشرير مهما اشتط فى شره يظل دائما معذبا بنزعة الخير فى داخله ، التى لم تستطع أن تنتصر وتصدر تصرفها .. كل ما هنالك أن نسبة الشر والخير تختلف من انسان الى آخر بسبب الظروف التى مرت به ، والبيئة التى عاش فيها ..

واللص .. خصوصا اذا لم يكن فى حاجة الى السرقة .. لا يمكن ان يكون سعيدا حتى لو لم يقبض عليه البوليس .. لان هناك شيئا فى صدره يعذبه ، والقاتل لا يمكن ان يكون سعيدا حتى لو لم يقف امام المحكمة . وقد شهد التاريخ ملوكا وقوادا قتلوا فى سبيل الابقاء على عروشهم .. وقد بقيت العروش وجلسوا عليها مدى عمرهم ، ولكنهم بقوا عليها غير سعداء .. بقوا عليها معذبين بها ..

وكذلك الرجل الذى يحتكر الآخرين ويستغلهم .. انه مهما جمع من أموال ، ومهما متع نفسه بمظاهر الحياة ، يبقى تعيسا شقيا ، لان الآخرين الذين يستغلهم يعيشون داخل نفسه .. يعيشون فى صدره .. وهو يحس بعذابهم ، ويحس بصراخهم ، ويحس باعتدائه على حقوقهم .. وقد يستطيع بذكائه واموله ان ينتصر

على من حوله من الناس .. يستطيع ان يخدعهم . وان يشترى سكوتهم ومظاهر احترامهم .. ولكنه لا يستطيع مهما بلغ لكلاه وتضخمت امواله ان يخدع هؤلاء الذين يعيشون فى داخله ، ولا ان يشترى سكوتهم واحترامهم .. ان قطعة من المجتمع تعيش فى صدره وتعذبه .

***

وعنــدما وصلت الى هذا الحد من تفــكيرى بدات اكتب القصة ..

قصة تصور عذاب الاحتكاريين الاستغلاليين ..

ثم مرت بى فترة من التردد .. تردد لانى خفت ان ابتعد عن الواقع .. فليس من الواقع ان يحس احد الاحتكاريين بجرائمه الى هذا الحد الذى تصوره مذكرات ـــ او خطاب ـــ حسين باشا شاكر بطل « شىء فى صدرى » .. ولكن : لماذا لا يكون واقعا .. انه واقع حتى لو لم يحس به حسين شاكر .. ان حسين شاكر .. قد يتعذب ، دون ان يدرى سبب عذابه .. ولكن جهله بالسبب لا ينفى انه معذب .. والواقع الذى يعيش فيه هو فعلا ما تسجله هذه القصة .. واقع المعــركة بين الشر والخير .. واقع المعركة بين الجشــع الفــردى والاحساس بالمجتمع ..

هل افلحت ؟..

هذا ما اتركه لراى القراء ..

كل ما ارجوه الا يقال عن هذه المقدمة التى كتبتها ، انها زادت القصة غموضا ، كما كان يقال عن المقــدمات التى يكتبهــا برنارد شور ..

احسان عبد القدوس

دار روز اليوسف ـــ القاهرة

١٩٥٨/٩/٢٠.

من السهل أن يحترمك الناس ....
ومن الصعب أن تحترم نفسك ....

احسان ..

- ١ -

حبيبتى هدى ..

هل فوجئت وانا اناديك : حبيبتى ؟ هل ارتفع حاجباك فوق عينيك ، وانفرجت شفتاك ، كأنك ذعرت ؟ !

ارجوك .. لا تذعرى .. ولا تدعى المفاجأة ترسم هذه الخطوط العميقة فوق وجهك الجميل .. حاولى ان تحتفظى بهدوئك .. وان تحتفظى بابتســامتك الحزينة الضــعيفة .. ولا تدعينى ازداد احساسا بانى اثمت بحبك .. هذا الاحساس الذى عانيته وشقيت به مدى عشر سنوات ، ولم اعد احتمل منه المزيد .. انى لم اعد احتمل ، فانى اموت .. كما تعلمين !!

هل استعدت ابتسامتك قبل ان تستمرى فى قراءة خطابى الطويل ؟ اذن .. دعينى اناديك مرة ثانية : حبيبتى هدى !

كم مرة ناديتك : حبيبتى ؟

بالضبط .. خمسة ملايين ومائتين وستة وخمسين الف مرة !!

لا تضحكى .. فانى لا اســتطيع ان اتخــلص من هواية الارقام ، حتى عندما احب ، وحتى وانا ملقى على سرير الموت .. وهذا الرقم هو عدد الدقائق فى مدى عشرة اعوام .. وقد كنت أناديك « حبيبتى » فى كل دقيقة .. مع دقات الساعة ، ومع دقات قلبى ، ومع دقات قدمى فوق الارض فى كل خطوة اخطوها

.. حتى عندما انام كانت انفاسى تناديك « حبيبتى » .. وهو دائما نداء خفى ، صامت ، لم يسمعه احد منى .. ولم تسمعيه انت ابدا .. نداء يتردد فى صدرى كانه تسبيح عابد ، ولا يكاد يهم بالانطلاق من بين شفتى ، حتى ازم عليه الشفتين .. ازمهما فى عنف وقسوة .. فيعود النداء مرتدا الى صدرى ليعيش فيه ، ويعذبنى ..

لم يكن من حقى ان اسمع احدا ندائى .. حتى انت .. وقد كنت بجانبك خلال هذه السنوات العشر .. فهل سمعت ندائى .. هل رايت صداه فى عينى وانا انظر اليك .. هل لمحت قلبى يتهدج فى حديثى معك .. هل احسست بيدى ترتعش وانا امدها الى يدك ؟ !

لعلك الآن تحاولين ان تتذكرى ..

لا تحاولى ..

انك لن تتذكرى شيئا ..

فقد كنت اقسو على عينى حتى لا تفضحا ندائى .. عيناى المسكينتان اللتان ذاب جل نورهما بين الأرقام ، وجللهما عمرى بالسواد كانه كان يعدهما للموت !!

وكنت وانا اتحدث معك اقبض على قلبى بضلوعى ، حتى لا يختلج وتتصاعد خلجاته الى لسانى .. قلبى الذى كان يضرب بشدة وقوة ، ثم تخاذل يوم التقى بك ، وبدأ يئن ويتوجع .. كأنه لم يشعر بالشيخوخة الا عندما التقى بصباك !

وكنت وانا امد يدى الى يدك ، امدها سريعا واسحبها سريعا ، قبل ان تلمسى الرعشة فيها .. يدى المعروقة التى انتشرت فوقها بقع صغيرة غامضة كانها غبار الزمن حط عليها وتبلور فوقها !! لن يمكنك ان تتذكرى شيئا ، فلم يكن يخطر ببالك ان « عمك حسين » بوقاره ، وهيبته ، ومجده ، وعمره .. يمكن ان يحبك كل هذا الحب .. يحبك ويريدك .. يريد شفتيك

لشفتيه ، ويريد صدرك لصدره .. ويريد قلبك لقلبه . يريدك .. اتفهمين ماذا يعنى العجوز عندما يريد .. انه يجمع الحياة كلها فيما يريد .. انه يجعل ما يريده هو الفاصل بين الحياة والموت ، .. اما ان يموت او يحصل على ما يريد .. والى هذا الحد كنت اريدك .. وكنت احبك .. ولكن حبى لم يكن يخطر لك على بال .. فلم تحاولى ان تلحظى شيئا فى تصرفاتى ، ولم تحاولى ان تكشفى عن ندائى الخفى اليك .. انما اطمأننت الى ، ووثقت بى ، دون شك ولا ريبة .. بل دون ان تسألى نفسك : لماذا اهتممت بك كل هذا الاهتمام ، ورعيتك بكل هذا الحرص ؟ !

— لماذا لم أعلن حبى قبل اليوم ؟

لماذا كتمت ندائى ، وتعذبت به كل هذا العذاب !!

سأروى لك القصة كلها .. لعلك تفهمين .. ولعلك بعد أن تفهمى تصفحين ...



منذ عشر سنوات ، وعلى وجه التحديد فى ١٤ سبتمبر عام ١٩٤٧ ، توفى والدك .. وكان صديقا لى .. وكانت صداقتنا لا يعرفها الناس ، بل لا تعرفينها أنت ، ولا والدتك .. كانت صداقة من نوع فريد .. فقد كنا زميلين معا فى مدرسة الفنون والصنائع ، منذ اكثر من خمسة وثلاثين عاما .. وكان يجمعنا التناقض فى كل شىء ..

كان ضعيفا رقيقا كأنه فنان امتص الفن كل قواه ولم يترك له الا خيالا .. وكنت قويا ممتلئا كأنى من ابطال الرياضة ، رغم انى لم اكن امارس شيئا منها .

وكان هادئا ، طيبا ، خجولا .. وكنت مشاكسا ، جريئا ، لا ينقضى يوم من ايامى دون ان انتصر او انهزم ..

وكان شريفا ، يضع للشرف مبادىء صارمة ، وحدودا ضيقة ، حتى يكاد لا يتحرك فى الحياة حرصا على مبادىء

الشرف .. اما انا فكنت اضع للشرف معانى متساهلة وحدودا واسعة .. كنت اغش فى الامتحان ، واسرق كتب زملائى ، وانافق المدرسين .. وانجح بتفوق كل عام !

وقد عرفته فى يوم لا انساه ..

كنت قد مرضت بالتيفويد ، وانا فى السادسة عشرة من عمرى ، وقضيت شهرين طريح الفراش .. شهرين غبت فيهما عن الحياة .. كنت خلالهما اعيش فى النار .. نار الحمى .. ثم شفيت .. وغادرت البيت لأول مرة ، وسرت فى الشارع .. ضعيفا لا تكاد ساقاى تحملانى ، مدهوشا ترتعش جفونى فوق عينى كأنى غريب عن هذا العالم .

ووقفت عند محطة الترام ، ورايت والدك .. كان اول وجه اعرفه والتقى به .. كنت اعرف انه طالب معى فى المدرسة ، ولم نكن قد تحادثنا او تعارفنا من قبل .. ولكنى عندما التقيت بوجهه احسست انى التقيت بالحياة .. احسست اننى لم اعد غريبا فى هذا العالم ، فتقدمت منه ، ومددت له يدى ، وشددت على يده فى فرحة كأننا اصدقاء قدماء التقينا بعد فراق طويل ..

وقلت وكلماتى تقفز فرحا فوق شفتى :

ــ ازيك !

قال مرحبا :

ــ ازيك انت .

ثم اخذنا نتبادل حديثا وادعا عن المدرسة واحوالها .. وركبنا الترام سويا ..

واحببته ..

كنت احب والدك حبا يشكل نوعا غريبا من الصداقة .. لم يكن صديقا اسهر معه ، او اتناقش معه ، او حتى العب معه .. فلم يكن يطيق سهراتى او يحتملها ، ولم يكن هناك موضوع واحد يمكن ان يجمعنا فى مناقشة ، ولم تكن رقته تسمح له ان

يشاركني العابى الخشنة .. بل اننا لم نكن نذاكر دروسنا سويا ، فقد كان طويل البال فى المذاكرة ، يستطيع أن يجلس الى مكتبه ساعات دون ملل ، اما انا فكنت لا أطيق .. كان ذكائى احد من ان يصبر على المذاكرة ، فكنت اخطف الدروس خطفا ، وما كنت اعجز عن خطفه ، كنت اعتمد على الغش !!

وقد حاولت عند أول معرفتى به ان اشده الى .. أو على الأصح ، حاولت أن اسيطر عليه .. حاولت ان اجعله يلتصق بى ، ويؤمن بى ، ويسلك فى الحياة طريقى .. ولكنه كان قوى الشخصية .. كانت شخصيته تقف كاملة فى مواجهة شخصيتى .. ولعله كان اقوى منى فى شخصيته .. وان كانت قوة شخصيته لا تبدو من خلال رقته ، وضعفه ، ونظراته الهادئة ..

ولم اثر لابائه على .. ولم اكرهه .. فقد كان أبيا بلا غرور او ادعاء .. وكان يحتفظ بقوة شخصيته لنفسه دون أن يحاول فرضها على احد ، حتى انه كان يبدو منطويا وادعا اكثر منه معتزا بشخصيته ..

وتولد بيننا هذا النوع الغريب من الصداقة ..

كنت اقابله فى الصباح ، فأحييه ، واتبادل معه بضع كلمات حول مواد الدراسة .. دائما كلمات جادة وقور كأننا رجال كبار .. ثم نفترق ولا نلتقى بعد ذلك ..

ورغم ذلك كنت احس به طول النهار بجانبى ، وكنت دائما ابحث عنه بعينى فى فناء المدرسة .. وكانت اعيننا تلتقى أحيانا فيبتسم احدنا للآخر من بعيد .. كانه هو الآخر يبحث عنى ..

ومع الأيام بدأت احس انى اتعمد انتزاع اعجابه .. كنت أحاول دائما ان ابدو محترما مهذبا امامه .. لم يسمع منى مرة نكتة خارجة من النكات التى تعودت ان اتبادلها مع بقية زملائى .. ولم ادعه يرانى وانا ادخن سجائر الحشيش فى ملعب الكرة ..

ولم يرنى ابدا وانا اسرق كتب الزملاء من ادراجهم فى خـلال « الفسح » ..

وكنت ايام المظاهرات ــ مظاهرات عام ١٩٢٢ ــ اقف بين الزملاء لأخطب فيهم خطبا حماسية وطنية .. وبين كل مقطع وآخر من الخطبة ، التفت باحثا عنه ، وعنـدما التقى بعينيـه الهادئتين العميقتين ، انظر فيهما ، كأنى اساله رايه ..

ولم اكن اعرف رايه ابدا ..

لم استطع يوما ان اتأكد مما اذا كان معجبا بى ام هازئا .. لم استطع يوما ان اعرف ما اذا كان راضيا عنى ام ساخطا على ..

كنت أحيانا اعتقد انه يعرف ما فى نفسى ، وان عينيه العميقتين تثقبان صدرى وتنفذان الى اعماقى لتكشفا ما فيها .. لتكشفا انى لست وطنيا صادقا ، وان هذه الكلمات الضخمة الرنانة التى اقذفها من فمى فى وجوه الطلبة لا تعبر عن ايمانى .. انما هى مجرد كلمات تمثيلية يقتضيها الموقف ..

ثم كنت اقول لنفسى : « ومن ادراه بحقيقة نفسى .. من ادراه انى انتعل هذا الحماس الوطنى ، حبا فى الوصول الى مرتبة الزعامة بين الطلبة ، وحتى انتخب عضوا فى لجنة الطلبة التنفيذية ، واشترك فى جمع التبرعات ، واتعرف الى الزعماء .. ثم اختلس من التبرعات ، واستفيد من الزعماء » ..

كنت اقول لنفسى هذا الكلام ، ثم ادير راسى عنه .. عن ابيك .. واستطرد فى خطابى الحماسى ، مبالغا فى انتقاء الكلمات الضخمة ، مبالغا فى اداء الحركات التمثيلية .. ولكنى لا البث ان اعود باحثا عنه بعينى ، كأنى مصر على ان اعرف رايه .. فلا ارى الا النظرة الهادئة العميقة التى تثقب صدرى ، وابتسامة ضيقة كأنها فرجة من امل بعيد لن اصل اليه ابدا ..

وتطورت محاولتى انتزاع اعجابه ورضاه ، الى احساس آخر .. الى احساس غريب .. بدأت احس كأنى اخاف منه ..

نعم . اخاف ..

انا الذى كنت اعد بين الطلبة بطلا وزعيما .. انا الذى لم اعجز ابدا عن الوصول الى شىء اردته .. انا .. اصبحت اخاف هذا الزميل الرقيق ، الهادىء ، الطيب ، الذى يبدو كفنان امتص الفن كل قواه ولم يترك له الا خيالا ...

ولم اكن اخاف ان يضربنى .. او يشى بى .. او يقف فى طريقى . ويا ليته حاول أن يضربنى او يشى بى او يقف فى طريقى .. ولو انه فعل ، لاعطانى العذر فى ان احطمه .. واقضى عليه ، واتخلص منه .. اتخلص من حبى له ، ومن محاولتى ارضاءه .. ولكنه لم يكن يفعل .. كان ارق من ان يضرب ، واطهر من أن يشى ، وارفع من ان يقف فى طريقى ..

وكنت اخافه ..

مم كنت اخاف ؟

كنت اخاف شيئا فى صدرى ، تحركه نظرته الهادئة العميقة ، وابتسامته الضيقة كفرجة الأمل البعيد .. وعندما يتحرك هذا الشىء احس بثقل يكاد يكتم أنفاسى .. واحيانا يكون هذا الشىء حادا كأنه السكين يمزق رئتى ..

كنت اخاف هذا الشىء !

هل تفهمين ؟ !

هل تفهمين ما هو هذا الشىء ؟ !

لا .. انك لم تفهمى بعد .. ولك العذر ، فانا نفسى لم افهم الا بعد ان عشت هذا العمر الطويل ، الى ان وصلت الى سرير الموت ..

ولاسرد لك حادثة وقعت لى عنـــدما كنت وابوك طالبين فى مدرسة الفنون والصنايع .. لعلك تفهمين !

كنا نؤدى امتحان الدبلوم .. وامسكت بورقة الاسئلة ، واخذت اقرا كل سؤال بامعان ، فلم اجد واحدا منها استطيع

ان اجيب عنه . ولكنى كنت مستعدا لمثل هذه الاحتمالات .. بل انى لم اكن ادخل الامتحانات الا لأواجه هذه الاحتمالات .. وفى كل جيب من جيوب سترتى « برشامة » ، اى ورقة صغيرة .. صغيرة جدا .. كتبت فيها بخط دقيق ، الجواب عن كل سؤال يحتمل ان اواجه به فى الامتحان ..

وبدات استعد لاخراج اول « برشامة » تحمل الجواب على اول سؤال ..

ووضعت يدى فى جيبى ..

ولكن ..

لقد توقفت يدى كأنها التصقت بالجيب ...

لماذا توقفت يدى ؟

انى لم اكن اخشى الأستاذ المراقب .. انه واقف بعيدا بحيث لا يستطيع ان يرانى .. وحتى لو كان واقفا قريبا منى ، فلم اكن لأحسب حسابه . فقد عودت يدى على خفة الحركة بحيث لا يستطيع اى مراقب ان يلمحنى ولو كان فوق راسى ..

ان يدى فى جيبى .. واصابعى تقبض على « البرشامة » .. سأسحبها من الجيب ، وسأسحب معها المنديل ، حتى تبدو حركة يدى كأنها حركة طبيعية .. ثم سأتظاهر بأنى امسح على وجهى بالمنديل .. ثم اعيده الى جيبى .. واظل محتفظا بالورقة فى راحة يدى ، بحيث لا تبدو من بين اصابعى ، ثم ابدا فى الاجابة عن السؤال ..

انى اجيد هذه الحركة تماما ..

ولكن يدى لا تزال داخل جيبى كأنها التصقت به ..

لماذا ؟

لماذا .. مرة ثانية ؟

انى استطيع الآن وانا فى الخامسة والستين من عمرى ، استطيع ان اجيب عن سؤال خطر لى وانا فى العشرين !

لقد تذكرت ساعتها اباك ..

تذكرت زميلى ذا العينين الهادئتين العميقتين ، والابتسامة الضيقة .. زميلى الذى احبه ..

هل يرانى وانا اغش ؟

ولكن مالى وماله .. لير اذا اراد ان يرى .. انى أواجه امتحانا قد ارسب فيه .. انى أواجه عاما من عمرى يكاد يضيع منى .. والوقت المخصص للاجابة عن الأسئلة يمر بسرعة .. يجب ان اخرج « البرشامة » من جيبى حالا .. حالا ..

ولكن يدى لا تزال ملتصقة بجيبى لا تريد أن تخرج منه ..

وبحركة لا ارادية التفت الى ابيك .. وفى نفس اللحظة التى التفت فيها اليه ، رفع راسه عن ورقة الاجابة ، ونظر الى بعينيه الهادئتين العميقتين ، وابتسامته الرقيقة الضيقة ..

وادرت راسى عنه بسرعة ، ودفنت وجهى فى ورقة الأسئلة ، وانا الهث .

نعم الهث ..

احسست بهذا الشىء الذى حدثتك عنه ، يتحرك فى صدرى .. شىء ثقيل يكتم انفاسى ، حاد كأنه السكين يمزق فى رئتى ..

وكان على ان اقاوم ..

وقاومت ..

قاومت بشدة ، وبقسوة على نفسى ..

وهدأ الالم قليلا .. واستردت سيطرتى على نفسى .. وبدات احاول من جديد ان اسحب « البرشامة » من جيبى .

ولكنى ــ بلا ارادة ــ التفت الى ابيك مرة ثانية .. الى زميلى الذى احبه .. ومرة ثانية رايته يرفع راسه عن الورق وينظر الى .. نظرته الهادئة العميقة ..

وتحرك الشىء فى صدرى ..

وبدات الهث من جديد ..

وفى خلال ذلك ، كنت اخوض معركة بين ذكائى ، وبين ابيك .. ذكائى يلح على ان اسيطر على نفسى ، وان اسحب « البرشامة » من جيبى .. ثم لا يكاد ذكائى ينتصر حتى اجد نفسى التفت الى ابيك ، واجد نفسى صريع هذا الشىء الذى تحركه فى صدرى نظرته الهادئة العميقة ..

وطال ترددى .. وربما وضح على وجهى آثار ما اعانيه من اضطراب .. فانتبه مراقب لجنة الامتحان ، وجاء الى ووقفة فوق راسى ، وقال كأنه اكتشف جريمة :

ــ بتعمل ايه ؟

وما كدت اسمع كلمته حتى ثرت .. ووقفت صارخا بأعلى صوتى وانا انتفض :

ــ باعمل ايه !! بفكر .. بامتحن .. ممنوع التفكير كمان . انتم عايزينا نسقط .. احنا بينا وبيكم ايه .. انت متقصدنى ليه .. حرام عليكم .. ده انا بقالى جمعه ما نمتش ..

وسرت ثورتى الى باقى الطلبة .. وترددت همهمات السخط .. وارتفعت اصوات : « ايه الظلم ده » .. « الأسئلة صعبة » .. « مش فاهمين الأسئلة » .. « الامتحان مش من المقرر » ..

وارتبك الأستاذ المراقب الواقف امامى ..

وجاء رئيس اللجنة مهرولا ..

ولم يكن لدى المراقب دليل على انى اغش فى الامتحان .. فصرفه رئيس اللجنة .. وهدات الضجة بعد حين ..

وقد كانت ثورتى ثورة صادقة انبعثت من كل اعصابى .. ولكنها لم تكن ثورة على المراقب ، ولكنها فى حقيقتها كانت ثورة على نفسى .. على ضعفى .. على حبى لأبيك ومحاولتى الاحتفاظ برضائه واعجابه ..

وقد ساعدتنى هذه الثورة على تجميع ارادتى ، وعلى انتصار ذكائى ، فما كاد المراقب ينصرف من جانبى حتى اخرجت

« البرشامة » ، واجبت عن الأسئلة .. ونجحت فى الامتحان بتفوق .. بل سبقت اباك فى ترتيب الناجحين !!

هكذا كنت انا وابوك ..

انه نوع غريب من الحب والصداقة .. ورغم ذلك فهو ليس نوعا غريبا جدا .. ان فى حياة كل واحد من الناس مثل هذا الحب .. ولكن الذين يعانون من هذا الحب قليلون .. وانا منهم :

فالمرأة ــ مثلا ــ عندما تحب تزداد عناية بجمالها ، وتتعمد ان تكون رشيقة ، انيقة .. لا لأن حبيبها سيلقاها .. فهى جميلة ، ورشيقة ، وانيقة دائما ، حتى فى الأيام التى لن تلقى فيها حبيبها .. انها لا تحاول أن ترضى حبيبها ، ولكنها تحاول أن ترضى الحب نفسه .. تحاول أن ترضى شيئا فى صدرها .. اسمه الحب ..

وكما تحاول المرأة ان ترضى هذا الشىء ، فهى تخافه .. انها تخاف ان تحادث رجلا آخر ، أو تخـــاف ان تشرب كأســـا من الويسكى .. وقد تكون متأكدة ان رجلها لن يراها .. قد يكون مسافرا وبينه وبينها مئات من الاميال ، ورغم ذلك فهى تخاف .. تخاف هذا الشىء .. تخاف ان يتحرك هذا الشىء فتحس بثقل يكاد يكتم انفاسها ، وسكين حاد يمزق رئتيها ..

ومثل آخر ..

ان الأب يخاف ولده .. وقد يكون ولدا صغيرا لا يتجاوز عاما واحدا من عمره .. ورغم ذلك فالأب يخافه .. وهو فى الحقيقة لا يخاف الولد ، بل يخاف شيئا فى صدره يثيره هذا الولد .. شىء يسمى « الابوة » .. فما ان يصبح ابا حتى يحاول أن يكون دائما محترما .. مهابا .. ويحاول ان يتخلص من خطاياه وعيوبه .. وكما يخاف هذا الشىء فهو يحاول أن يرضيه .. يحاول ان يتقدم فى عمله ، وان يرتفع بنفسه ، وان يكون انسانا كاملا ..

واكثر من ذلك ..

قد يكون للانسان صديق .. وقد يكون هذا الصديق اضعف من فى حياته من الأصدقاء .. واقلهم نفوذا .. وقد لا يكون فى حاجة مادية اليه .. ورغم ذلك فهو يحاول دائما أن يبدو محترما امام هذا الصديق دون باقى الأصدقاء .. انه يتعمد الا يبدو مخمورا امامه ، ويتعمد الا يدعه يراه وهو جالس الى مائدة القمار ، ويتعمد ان يخفى عنه خطاياه .. ان هذا الصديق يحرك الشىء الذى يعيش فى الصدر ..

وفى صدر كل انسان هذا الشىء ..

ولكن ليس كل انسان يتعذب به ..

ان الانسان لا يتعذب بهذا الشىء ، اذا استطاع ان يستسلم له ، او استطاع ان يقضى عليه ..

اما انا فانى اتعذب به ..

اتعذب به ، لانى لم استطع ان استسلم له ، ولا ان اقضى عليه .. انما عشت اقاومه ويقاومنى .. واتعذب !

هل تفهميننى يا هدى ؟ !

انى اعلم انى احادثك بعقلية رجل فى الخامسة والستين من عمره لم يتعود ان يعبر عن افكاره بقلمه .. لم يتعود الا كتابة الشيكات .. ولم ير نفسه على حقيقتها الا عندما اصبح قريبا جدا من السماء ، ولم يعد بينه وبين قبره سوى بضعة انفاس ..

نعم ، انى ارى الآن نفسى على حقيقتها .. ارى النفس البشرية .. وقبل اليوم لم اكن اراها .. لم اكن ارى هذا « الشىء » الذى احدثك عنه ..

لم اكن اراه ..

ولم اكن اعرفه ..

لم اكن أرى الا اباك . ولم اكن اعرف ان اباك هو هذا الشىء !! وقد قضيت حياتى كلها احاول أن ارضى اباك ،

فلا أستطيع .. واحاول ان اتخلص منه .. ان اسحقه .. فلا استطيع !

وقد تخرجت أنا وأبوك فى مدرسة الفنون والصنائع .. ولم أحاول أن التحق بوظيفة حكومية .. كما فعل ابوك .. كان ذكائى واقبالى على الحياة اكبر من ان تتسع له وظيفة حكومية .. فقررت أن اشتغل مقاولا .. وكانت ايسر المقاولات واكثرها ربحا مقاولات الجيش البريطانى .. جيش الاحتلال !

وفكرت ساعتها فى ابيك ..

هل يقبل ان يشاركنى .. وهل العمل مع الجيش البريطانى يعتبر انحرافا عن الوطنية .. وواجهتنى نظرة أبيك الهادئة العميقة .. وأحسست انى مقبل على ارتكاب جريمة .. بدات احس بهذا الشيء الذى يكاد يكتم أنفاسى .. ولكن ذكائى ثار على هذا الشيء .. ان كثيرين من المصريين يتولون مقاولات الجيش البريطانى .. فلماذا لا اكون واحدا منهم .. وزعماء البلد الا يتفاوضون مع بريطانيا .. لماذا ذهب سعد زغلول الى المعتمد البريطانى ؟ ! ليعقد معه معاهدة .. وما هى المعاهدة ؟ اليست هى مقاولة تحقق مصلحة مصر ومصلحة بريطانيا .. وانا ايضا سأعقد معاهدة صغيرة مع بريطانيا .. معاهدة تحقق لى مصلحة ، وتحقق لهم مصلحة .

وقد كنت محتاجا الى هذا المنطق حتى أستطيع ان اتغلب به على خوفى من أبيك ومحاولتى ارضاءه .. واسرعت باندفاع عجيب ، وتعرفت بأحد ضباط الجيش البريطانى .. ودعوته الى سهرة ، قدمت له فيها الخمر ، والنساء ، وصداقتى ..

وفى صباح اليوم التالى ، حصلت على عقد مع الجيش البريطانى لتوريد عمال لعملية شق طريق داخل معسكرات جيش الاحتلال ..

وكنت فى حاجة الى راس مال صغير .. استطعت ان اقترضه بسهولة من بعض الأصدقاء ..

وقبل ان اسافر الى مقر عملى الجديد بيوم واحد .. ذهبت الى ابيك .. لماذا ذهبت اليه .. لا أدرى .. ولكنى ذهبت اليه .. وعرضت عليه ان يشاركنى فى المقاولة التى حصلت عليها بنسبة النصف ، دون ان يدفع شيئا من راس المال .. ولم يكن العمل فى حاجة اليه .. ولم تكن له كفاية ممتازة تغرى باستغلاله .. ولكنى كنت اريده معى .. كأنه يستطيع ان يحمينى من شىء اخافه .. كأنه يستطيع ان يسعدنى بشىء انا فى حاجة اليه .. ولكنه رفض .. نعم ، رفض .. رفض وابتسامته الضيقة كالأمل البعيد لا تزال فوق شفتيه ، ونظرته الهادئة العميقة لا تزال فى عينيه .. رفض مكتفيا بوظيفة حصل عليها فى وزارة الأشغال . وظيفة مهندس طلمبات فى مديرية قنا .

وتركته وانا ثائر ، حانق ، مغتاظ .. كنت اسبه والعنه .. الغبى .. الحمار .. ماذا يظن فى نفسه !! اله الفضيلة !! رب الزهد والقناعة !! بطل الوطنية !!

وظللت ثائرا عدة ايام ، وانا احاول ان اطفىء ثورتى باندفاعى فى العمل ..

وقد عملت كثيرا .. وربحت كثيرا ..

كنت احاسب الجيش البريطانى ، على عشرة قروش اجرا للعامل الواحد .. ثم لا ادفع للعامل الا خمسة قروش .. هل تعتقدين ان هذه سرقة .. سرقة اقوات العمال ؟ ! ان اباك ايضا كان يعتبرها سرقة .. ولكن العمال انفسهم كانوا يعتبرونها فضلا عظيما .. فان المقاول الذى كانوا يعملون معه قبلى ، لم يكن يدفع للواحد منهم سوى اربعة قروش !!

لقد احبنى العمال فعلا .. واعتبرونى نصيرا لهم ..

ولو اشتغلت بالسياسة ايامها لاصبحت « زعيم العمال » !!

لكن .. هل هدات واسترحت ؟ !

هل نسبت اباك ؟!

ابدا ..

لقد ارسلت اليه عبد العظيم افندى ليعرض عليه مرة ثانية أن يكون شريكى فى العمل ، أو ان يقبل أن يكون مديرا لشركتى الجديدة .. « شركة المقاولات العمومية » .. بمرتب قدرة ثلاثون جنيها فى الشهر .. اى اكثر من ضعف مرتبه فى الحكومة .. وقد كانت الثلاثون جنيها ايامها تساوى اليوم ثلثمائة ..

وتعجب عبد العظيم افندى من هذا العرض .. فقد كان يعرف أباك ، وكان يعرف عنه انه لا يصلح شريكا لى ، ولا مديرا لشركتى .. كان يعرف عنه ما يعرفه كل الناس .. يعرف انه منطو .. لا تبدو شخصيته من خلال رقته .. ولا يبدو انه يحتمل كفاحا او يسعى الى امل .. انه واحد من الملايين الذين يقفون على رصيف الحياة يتفرجون .. مجرد فرجة ..

ولم يكن عبد العظيم افندى يعرف مكانة والدك فى نفسى .. لم يكن يعلم انى احب والدك .. اخافه واسعى الى رضائه .. لم يكن يعلم ان والدك يمثل هذا الشىء الذى يسكن فى صدرى ، ويعذبنى .. وقد حاول أن يعارضنى ، وقال وهو يلوى شفتيه الغليظتين :

ـ وده حا تعمل بيه ايه ده .. ده ما ينفعش ببصلة !

واحسست كأنه اهاننى ، ورفعت اليه عينين غاضبتين وقلت فى حدة :

ـ ما لكش دعوه .. اعمل اللى باقولك عليه ، وانت ساكت !

ونظر الى عبد العظيم افندى بعينيه المنتفختين القذرتين ..

ثم ارخى جفنيه اللذين تساقطت رموشهما ، وخطا خطوة ، ثم عاد والتفت الى ، وقال فى الحاح :

ــ انا حاعملك كل اللى انت عايزه .. بس وحياة والدك فهمنى .. ايه اللى عاجبك فى سى محمد افندى ؟ !

وصرخت فى وجهه :

ــ انت حاتحاسبنى .. مين اللي بيشتغل عند التانى .. تكونش فاهم انى انا اللى باشتغل عندك .. غور من وشى !

وابتعد عبد العظيم افندى ، وهو يثير من تحت قدميه تراب الأرض كأنه يقذفه فى وجهى ..

وذهب الى والدك ..

وعاد ..

وقرات على وجهه الكريه نتيجة مسعاه .

لقد رفض والدك ..

واحسست انى اهنت .. احسست بالشىء يكاد يكتم انفاسى ويمزق رئتى .. واحسست فى الوقت نفسه بطاقة ثورية تنطلق فى نفسى وتتحدى والدك .. تتحدى الانسان الرقيق الهادىء الذى يعيش بعيدا عنى ، ويرفض ان يقترب منى .. واحسست انى فى حاجة الى ان اعمل عملا كبيرا .. فى حاجة الى نجاح كبير . ارد به على والدك .. لعله يقتنع بى .. ولعله يعجب بى ..

وسمعت صوت عبد العظيم افندى وكأنه يأتى من بعيد ، قائلا :

ــ الصنف ده غاوى فقر . ده صنف يعيش فقير ويموت فقير .. صنف جبان .

وابتسمت ساخرا وانا اسمع صوت عبد العظيم افندى .. انه لا يعلم !

***

حبيبتى هدى :

انك تعرفين عبد العظيم افندى .. تعرفينه باسم عبد العظيم بك ، مدير شركة الصناعات التجارية ..

انه لم يكن ايامها « بك » ولم يكن مديرا عاما .. انما كان مجرد افندى .. ولم يستحق لقب افندى ، الا لانه كان يضع طربوشا فوق راسه ، ويعلق فوق أذنه « قلم كوبيا » ، ويرتدى معطفا أصفر كالحا ، فوق جلباب ذابت الألوان فيه حتى لم يعد له لون .. ويمسك فى يده « دفترا » صغيرا يسجل فيه حسابات العمال ، وفى يده الأخرى « خرزانة » يهزها فى وجوههم .. وجوه العمال !

ودعينى اقدم لك عبد العظيم بك على حقيقته ، فانك لن تعرفينى الا اذا عرفته ..

لقد كان طالبا معنا فى مدرسة الفنون والصنائع ، ورسب فى امتحان السنة الأولى عدة مرات .. وعندما نجح اخيرا وانتقل الى السنة الثانية خرج من المدرسة .. ولم يكن احد منا يعرف كيف يعيش ، او يعرف شيئا عن عائلته ، ولكنه كان فقيرا فى مظهره ، وكان دائما معنا .. حتى بعد ان خرج من المدرسة ظل مرتبطا بنا .. وبدات حاله تسوء .. كان يبدو كأنه يبيت كل ليلة فوق الرصيف .. حلته متسخة دائما .. مكرمشة دائما .. كانه يكرمشها تعمدا وبعناية .. ورباط عنقه رفيع ملتو كانه رباط حذائه .. وشعره دائما مهوش فوق راسه كانه لم يمر به مشط فى حياته .. ووجهه اغبر معفر كأنه لم يغسله ابدا .. وساءت حاله اكثر فأكثر .. وبدا كأنه مريض .. هزيل ، نحيل ، اصفر .. وقال بعضنا عنه انه ادمن الكوكايين ، وقال البعض انه مريض بالسل ..

ولكن عبد العظيم لم يكن يحس بسوء حاله ، ولا يشكو منه .. كأنه اختار هذا الحال السيىء بمحض ارادته .. وبمزاجه ..

وكانت له حيوية كبيرة .. كان يتكلم دائما وكثيرا .. وكانت نكاته البذيئة لا تنتهى ..

وكان يفعل اى شىء !!

وعندما خرج بن المدرسة اصبح هو الذى يتولى لنا شراء قطع الحشيش . وهو الذى يدلنا على النساء الرخيصات .. وهو الذى يقودنا الى الحانات مساء كل خميس .. و .. و .. وباختصار .. كان يفعل كل شىء !

وعندما تعددت خدماته لنا .. هذا النوع من الخدمات .. وتأكد اننا اصبحنا فى حاجة اليه .. لم يعد ينتظرنا أمام باب المدرسة كما كانت عادته .. ولم يعد يمر علينا فى بيوتنا .. بل اتخذ له مقرا فى احد المقاهى البلدية بشارع الحسينية ، واصبحنا نحن نذهب اليه .. ولم يعد يخدعنا فى ثمن قطع الحشيش ، أو اجر النساء الرخيصات ، بل اعلن — فى وقاحة — ان من حقه أن يتقاضى « عمولة » على خدماته ..

ولم يكن حتى ذلك الحين قد تجاوز التاسعة عشرة من عمره !! وبعد ان تخرجت .. وبدأ اول عمل لى مع الجيش البريطانى .. ذهبت اليه كما ذهبت الى والدك !!

ذهبت اليه لأطلب منه ان يعمل معى ملاحظا للعمال !

ورحب عبد العظيم بالعمل معى ، فقد كان يهابنى ، ويحترمنى اكثر مما تعود أن يحترم الناس ، ويحسب حسابا كبيرا لغضبى ورضائى .. كانت شخصيتى طاغية عليه ، الى حد انه لم يكن يستطيع ان يحاسبنى على « العمولة » التى يحاسب عليها بقية الزملاء !!

ورحبت انا بعبد العظيم ، لانى كنت أعلم انه يستطيع ان يكون اكثر من مجرد ملاحظ للعمال .. كان يستطيع ان يقوم بجميع الأعمال القذرة التى قدرت انى فى حاجة اليها لأسير بعملى ..

وقد قام فعلا بكثير من الأعمال القذرة .. قام بها على اكمل وجه !

كان هو الذى يعد الليالى الحمراء للضباط الانجليز .. وهو الذى يتقدم لهم الرشاوى .. وهو الذى ينقل الى الأخبار .. اخبار المشروعات الجديدة .. واخبار العطاءات التى يتقدم بها المقاولون المنافسون لى ؛ حتى اقدم عطاء اقل سعراً من عطاءاتهم وافوز بالمشروع .. وكان يتجسس على العمال .. ويتحمل عنى متاعبهم .. وقد ثار عليه العمال مرة .. فخرجت اليهم وادعيت انى اناصرهم .. وانهلت على عبد العظيم افندى صفعا وركلا امامهم .. كنت اضربه ضربا حقيقيا .. وكان يصرخ ويستجير .. وهدأت ثورة العمال ، وهتفوا باسمى .. « يحيا نصير العمال » .. ثم جاءنى عبد العظيم افندى فى مكتبى . ليقبض ثمن الصفعات والركلات ، وابتسامته تسيل كاللعاب من بين شفتيه الغليظتين .

وظل عبد العظيم افندى فى حياتى كلها ..

كبرت المشروعات .. وكبرت انا .. وكبر معى عبد العظيم افندى .. وكبرت معنا الأعمال القذرة !!

هل تتقززين وانت تقرئين هذه السطور !

هل التوت شفتاك الرقيقتان كأنك تمتعضين .. هل اهتز جفناك فوق عينيك العميقتين كأنك تطردين عنهما شبحا يخيفك !!

يا احب الناس .. حاولى أن تحتملى خطابى كله .. لا تدعينى اخاف عليك مما سأحدثك به .. انى اعترف كما ترين .. واريد أن يكون اعترافى كاملا ، صادقا .. اريد أن اكون شريفا للمرة الأولى والأخيرة فى حياتى .. وانا كما تعلمين اقف الآن على باب السماء .. ولست طامعا فى عفو الله .. انا لا استحق عفوه .. ولكن كل ما اطلبه منه أن يعينك على قراءة خطابى هذا .. فساعدينى لدى الله .. ساعدينى حتى اتم اعترافى .. ولا تلوى

شفتيك .. لا تمتعضى هكذا ، فان ما حدثتك عنه حتى الآن ليس سوى الحياة .. الحياة خارج بيتك النظيف الذى لم يدنسه سوى دخولى اليه .. وعبد العظيم افنـدى كما وصفته لك شخصية معروفة فى دوائر الأعمال ، ودوائر الكبار .. ان وراء كل كبير .. ووراء كل عظيم ، عبد العظيم افندى .. ان الكبار لا يكبرون الا بالأعمال القذرة .. والأعمال القذرة فى حياة كل كبير يقوم بها عبد العظيم افندى !!

ولا تطلبى منى أن اعدد لك الـكبار الذين اقصـدهم .. ولا تطلبى منى ان اعدد كم « عبد العظيم افندى » يعيثون فسادا فى مصر .. فانى لا انوى الدفاع عن نفسى ، ولا اريد أن اتخذ من اعمال غيرى مبررا لأعمالى ..

لا ..

ولكنى فقط اريد ان تهدئى ، حتى استطيع أن اسـتمر فى خطابى ..

هل استمر ؟ !

اذن ، اسمعى .

لم يكن عبد العظيم افندى وحده كافيا لأحقق النجاح الذى حققته ، ولا الخطوات الكبيرة التى قطعتها .. فقد كان يلزمنى لتحقيق هذا النجاح ابوك ايضا .. نعم ، ابوك .. الرجل النظيف الرقيق الذى لا تبدو شخصيته من خلال رقته .. الرجل الذى احبه .. الرجل الذى احاول ان انال رضاءه واعجابه .. الرجل الذى يحرك الشىء فى صدرى ..

كان عبد العظيم افندى يمثل الأداة التنفيذية لى .. وكان ابوك يمثل الدافع .. يمثل القوة التى تدفعنى الى النجاح .. والى المزيد من النجاح ..

لقد نجحت فى مشروعى الأول .. كسبت كثيرا .. واصبحت غنيا .. ولكنى لم احس بأنى نلت اعجاب ابيك .. لقد بدا

الناس يحترموننى .. كل الناس يحترموننى .. ويعجبون بى ، وبذكائى ونشاطى . ولكنى لم احس اباك يشارك الناس هذا الاعجاب وهذا الاحترام .. كان الشىء الذى يسكن صدرى قلقا دائما .. لا يهدأ ابدا .. فتوليت مشروعا آخر نجحت فيه ، ثم مشروعا ثالثا ، ثم لم اعد اكتفى بعطاءات الجيش البريطانى .. دخلت عطاءات الحكومة .. ولبس عبد العظيم افندى حلة وجيهة ليستطيع ان يقابل بها كبار الموظفين ويقوم لهم الرشاوى ، باحترام كبير ..

وكثرت المشروعات الحكومية التى توليتها .. ثم انشأت مصنعا .. ثم شركة صناعية كبيرة .. واصبحت شخصية معروفة من الشخصيات التى تتحكم فى مصير مصر .. ومددت اصابعى الى الاحزاب السياسية .. واستطاع عبد العظيم افندى الآن يشترى لى فى كل حزب مجموعة من اعضائه .. وفى كل وزارة وزيرا أو وزيرين .. وخلال كل ذلك نلت لقب البكوية .. وعندما نلت لقب الباشوية .. واصبحت . « باشا » .. فى نفس اليوم ، اصبح عبد العظيم .. بك !!

وفى كل مرحلة من هذه المراحل كنت أسأل نفسى : هل رضى عنى محمد افندى .. هل نلت اعجاب والدك ؟ !

ولو انى اعتقدت انى نلت اعجابه ورضاءه لتوقفت .. لو انه جاءنى وشد على يدى ، لاكتفيت بما كنت قد وصلت اليه .. لو انه قبل ان يكون معى لقنعت بما انا فيه ..

ولكنه لم يرض ، ولم يشد على يدى ، ولم يكن معى .. فكنت دائما فى حاجة الى نجاح اكبر .. الى مشروع اضخم .. لعلى اقنعه .. ولعلى اقنع الشىء الذى يعيش فى صدرى ..

ولم تكن علاقتى بأبيك خلال كل هذه السنوات مجرد خيال .. او مجرد احساس .. بل كانت علاقة واقعية .. كانت عملا من اعمالى اليومية .. وكان عبد العظيم افندى .. او « بك » ..

بفهم كل الأعمال التى اكلفه بها .. الا عملا واحدا كان مكلفا به دائما ، وهو ان ينقل الى اخبار محمد افندى السيد اولا بأول !

وكان عبد العظيم يكره محمد افندى السيد ، ويلعنه .. ويشتمه .. ولكنه لم يكن يستطيع ان يعصى لى امرا .. فخصص معاونا خاصا لجمع اخبار ابيك .. فكنت اول من يعرف خبر نقله من قنا الى اسيوط .. ثم من اسيوط الى القناطر .: ومن القناطر الى القاهرة .. وكنت اول من سمع بترقيته الى الدرجة السابعة .. ثم السادسة .. ثم الخامسة .. حيث وقف ولم يتقدم بعدها .. اصبح من الموظفين المنسيين .. وكنت اول من عرف بخبر زواجه .. وخبر ولادتك .. وكنت اعرف عنوان بيتكم .. وكنت اعرف يوم يغيب عن ديوان الوزارة .. ويوم يأخذ اجازته السنوية .. و .. و .. كنت اعرف كل ذلك .. وهو لا يدرى انى اعرف ..

ولن احدثك عن الرسل التى ارسلها اليه عبد العظيم لمحاولة ارضائه او اغرائه بالعمل فى احدى الشركات العديدة التى املكها دون ان يبدو اسمى فيها .. لقد خاب كل هؤلاء الرسل ، وكان كل منهم يعود ليعلن ان اباك رجل .. غبى !

ولكنه لم يكن غبيا ..

انى اعرفه ..

لقد كانت هذه طبيعته .. كانت هذه شخصيته .. كانت شخصية اقوى من ان تتلوث .. شخصية تشم رائحة العفن من بعيد ، فتبتعد عنه ..

وفى مرة طلبت من عبد العظيم ان يوعز الى زملائى خريجى مدرسة الفنون والصنائع ان يقيموا حفلة تكريم لى بوصفى ألمع خريجى المدرسة منذ انشئت حتى اليوم ..

لا تدهشى ..

فقد كنت اكلف عبد العظيم بكثير من مثل هذه المهام التى قد تبدو كأنها صفاقة منى ، ولكنها صفاقة يحتـــاج اليهـــا كل الكبار ..

ولم اكن اعبر عن هذه الصفاقة بصراحة ، بل كان يكفى أن أقول لعبد العظيم مثلا : « يظهر ان جريدة الأهرام مش راضية علينا اليومين دول » .

ويصيح عبد العظيم : « ازاى الكلام ده » ..

وفى اليوم التالى تبدو جريدة الأهرام وقد خصصت صفحة كاملة من صفحاتها للحديث عن مشروعاتى ، وعن « الوطنى المكافح حسين باشا شاكر » !!

وفى هذا اليوم قلت لعبد العظيم :

— والله زملاءنا اللى كانوا معانا فى المدرسة وحشونا ! ؟

واجاب عبد العظيم بذكائه اللماح :

— دول ناس ما فيهمش خير .. كان لازم يعملوا لسعادتك حفلة تكريم .. هو حد شرفهم غيرك !!

وبعد أيام جاءنى وفد من خريجى المدرسة ليعرضوا على أن اشرفهم بقبولى اقامة حفل لتكريمى ..

واعتذرت تواضعا منى !

والحوا .. وازدادوا الحاحا !

واقترحت عليهم — فى تواضع — ان يحولوا نفقات اقامة حفلة التكريم الى جمعية مبرة محمد على ..

وهتف الزملاء بحياة رجل البر .. اى انا !!

ونشر الخبر فى الصحف ..

ولكن الزملاء عادوا وقالوا انهم بعد ان تبرعوا بتكاليف اقامة الحفل لمبرة محمد على ، جمعوا مبلغا آخر لاقامة حفلة التكريم .. لأن فى تكريمى تشجيعا لأمثالى المكافحين .. و .. و ..

واضطررت ان اقبل التكريم !!

وكل هذا حتى ارى اباك فى حفلة تكريمى .. حتى ارى عينيه الهادئتين العميقتين ، وارى نفسى فيهما ..

وقد كنت متأكدا انه دعى الى الحفل .. ان عبد العظيم تأكد بنفسه ان بطاقة الدعوة قد وصلته ..

ولكنه لم يحضر ..

نعم .. لم يحضر !

وقد دخلت الى مكان الحفل وانا ادير عينى باحثا عنه .. لم أر وجوه المستقبلين .. ولم اسمع التصفيق الذى استقبلت به .. ولم تلتقط اذناى شيئا من الكلمات التى كانت تلقى تحت قدمى .. كنت ادير عينى باحثا عنه ..

وجلست فى مقعدى ، وانا لا زلت ادير عينى باحثا عنه ..

وتوالى الخطباء .. يشيدون بمجدى وكفاحى .. وانا لا إسمع شيئا ، انما اركز عينى على الباب لعلى اراه يدخل منه .. يدخل الى !

ثم يئست ..

انه لن يأتى ..

وعندما يئست من حضوره ، احسست كأنى صغير .. صغير جدا . احسست انى شىء حقير .. حقير جدا .. واحسست ان كل هؤلاء الناس المحيطين بى منافقون .. كلهم منافقون .. كلهم اصغر منى ، واحقر منى ..

واحسست ساعتها انى قذر .. يجلس بين اكوام من القذارة .. وقلبت شفتى فى امتعاض .. ومرة واحدة ، بينما كان احد الخطباء فى اوج حماسته .. قفزت من فوق مقعدى .. ثم اسرعت نحو باب الخروج ..

وارتبك الحفل .. وجرى البعض خلفى .. وهمهمت ببعض

كلمات ليس لها معنى . كأنها كلمات اعتذار .. ثم تولى عبد العظيم عنى مهمة الاعتذار للمحتفلين بى ، وافهامهم انى مرتبط بموعد هام سيتقرر فيه بناء مشروع ضخم ..

وفى اليوم التالى تبرعت بعشرة آلاف جنيه للأعمال الخيرية ..

وكان هذا هو ردى على عدم حضور ابيك الى الحفل ..

كانت هذه العشرة آلاف جنيه كأنها رشوة له .. لعله يرضى عنى ويعجب بى !

فهل رضى عنى !! هل اعجب بى ؟ !

لا ...

والشىء الذى فى صدرى يعذبنى !

وقد ترك هذا الحادث اثرا آخر فى نفسى .. لقد اصبحت احتقر الناس المحيطين بى .. واتلذذ باحتقارهم .. اصبحت اتعمد كلما جاءنى وزير ، او باشا من الباشوات الذين يشتريهم لى عبد العظيم لاعينهم اعضاء فى مجالس ادارة شركاتى .. اصبحت اتعمد ان « الطعهم » فى غرفة السكرتير مددا متفاوتة .. لا لشىء الا لأتلذذ بلطعتهم .. واتلذذ باحتقارهم .. وكلما طالت مدة لطعتهم . ازددت تلذذا ..

وبدا هؤلاء الناس يقولون عنى انى رجل متكبر ، متغطرس .. وكانوا يقولون هذا الكلام فى مجالسهم الخاصة ، اما فى مجالسهم العامة فكانوا يقولون عنى انى رجل مشغول !

والواقع انى لم اكن متكبرا ولا متغطرسا .. ولكنى عندما احسست ايضا انى انسان صغير حقير .. احسست ايضا ان كل هؤلاء الناس الذين يحيطون بى ، والذين اتعامل معهم ، هم اصغر منى واحقر .. وكنت فى حاجة الى هذا الاحساس لأنقذ نفسيتى من الانهيار وكنت فى حاجة الى ممارسة هذا الاحساس.

واظهاره حتى اقتنع نفسى به .. ثم اصبحت اتلذذ بهذا الاحساس .. اتلذذ بمعاملة هؤلاء الناس على انهم اصغر منى واحقر ..
وكان هذا من فعل والدك ..

***

حبيبى هدى ..
وسأناديك دائما : حبيبتى ..
لماذا حدثتك كل هذا الحديث الطويل عما كان بينى وبين المرحوم والدك ؟ ..
لانك لن تفهمى ما بينى وبينك ، الا اذا فهمت ما كان بينى وبين والدك .. لن تفهمى لماذا احببتك ، وكيف احببتك ، الا اذا فهمت اين كان والدك منى ، واين كنت منه ..
حاولى ان تفهمى ..
ارجوك .. حاولى كثيرا .. حتى لو اضطررت ان تعيدى قراءة سطورى مرة ثانية .. حاولى بكل ذكائك ، وبكل احساسك .. فان ما سأحدثك به بعد ذلك ، فظيع .. فظيع .. ولن تحتملى فظاعته الا اذا فهمت ، الا اذا وضعت عقلك بجانب قلبك . وانت تقرئين ..
ولا تنسى انى اموت ..
دعينى اقص عليك الحوادث التى جمعتنا ..
دعينى اقص عليك قصة حبى .. القصة التى تسمعينها لأول مرة ..
انى ارى الماضى كله بوضوح .. والأيام كلها منتصبة أمامى ، يوما بعد يوم .. واستطيع ان اصف لك كل يوم ، وان اردد كل كلمة قيلت .. ان ذاكرتى لم تكن ابدا بمثل هذا الوضوح ، وذهنى لم يكن ابدا بمثل هذا الصفاء .. غريبة .. كأن الله يهب الناس ، وهم على فراش الموت ، ذاكرة قوية ، حتى لا يحتجوا بالنسيان وهم يؤدون امامه الحساب !!

اسمعى يا احب الناس :

فى صباح ١٤ سبتمبر عام ١٩٤٧ ، قمت من النوم فى الساعة السابعة صباحا كما كانت عادتى دائما .. ولبست ثيابى فى تأن وهدوء .. وقد عودت نفسى على هذا التأنى والهدوء فى كل حركة من حركاتى ، حتى احتفظ بمظهر محترم مهاب !! .. ثم نظرت الى نفسى فى المرآة بلا اكتراث .. الى رأسى الكبير ، والى حاجبى الكثيفين ، وركزت نظرى برهة على الشعرات البيض التى تكسو فودى ، وتتسلل الى شاربى الصغير .. ثم نزلت الى الحديقة ، وياسين خادمى الخاص ، يتقدمنى .. وطفت بحديقة القصر ، والجناينى يتبعنى .. ثم انحنيت وقطفت وردة حمــراء كبيرة علقتها فى عروة سترتى .. وقد فعلت كل ذلك بلا احساس ، انما بحكم العادة .. فلم اكن احس بجمال الحديقة ، ولا بجمال الوردة .. انما هى عادة اتبعتها لأنها عادة الأغنياء الكبار .. ثم جلست الى المائدة المعدة تحت احدى الخمائل لأتناول عليها افطارى .. ورشفت رشفة من فنجان الشاى ، ثم مددت يدى وسحبت جريدة الأهرام .. وقد تعودت ان اقرا اولا صفحة الوفيات .. وربما كان الدافع لى على قراءة اخبار الوفيات يختلف عن دوافع بقية الناس ، فقد كنت اقرؤها على امل ان اجد عدوا لى قد مات .. انه امل خبيث ، ولكنى اعترف كما تعلمين ، وقد نويت ان اصدقك فى اعترافى .. نعم ، كنت اقرا صفحة الوفيات على امل ان يكون عدد اعدائى قد نقص واحدا .. اما اصدقائى ، فليس لى اصدقاء .. كل الناس اعداء .. زملائى رجال الأعمال الذين اجتمع بهم فى حفلات العشاء ، واقضى معهم فترات طويلة فى نادى محمــد على وفى نادى السيارات ، نتبادل خلالها الابتسامات والنكات .. كلهم اعداء .. ورجال الأحزاب والمستوزرون .. كلهم اعداء .. حتى الذين اعينهم فى مجالس ادارة شركاتى ، وادفع لهم بسخاء .. كلهم

اعداء .. والموظفون كلهم اعداء ، والعمال كلهم اعداء .. كل الناس اعدائى .. لا يربطنى بهم سوى حاجتهم الى .. وهم يكرهوننى لانهم دائما يطمعون فى المزيد .. ولو اغمضت عينى عنهم ، او لو تحرروا من حاجتهم الى ، لا نقضوا على وحطمونى ..

كل الناس اعدائى ، وعلى راسهم صديقى الوفى ، وكلبى الذليل .. عبد العظيم بك !

وكلهم اتمنى لهم الموت ، ويتمنون لى الموت !

ولهذا كنت اهتم دائما بقراءة صــفحة الوفيات فى جريدة الاهرام !!

وجرت عيناى بين السطور السوداء .. ثم توقفت ..

لقد قرات اسم والدك ..

مات ..

مات محمد افندى السيد .. الصديق الذى احبه واخافه واسعى الى رضائه .. مات الرجل الذى يحرك شيئا فى صدرى ، فأحس بثقل يكاد يكتم انفاسى . وســكين حاد يمزق رئتى .. مات الرجل الوحيد الذى استعصى على طول حياتى . فلم أستطع ان اسيطر عليه ، ولا أن أتخلص منه ..

ولم اعرف ساعتها ما هو احساسى بالضبط .. انما شعرت كأن شيئا ينسلت منى ويتركنى فراغا .. ووقعت الجريدة من يدى ، دون ان اتم قراءة الخبر ، ودون ان اقرا اسعار البورصة التى يبدا بها عملى كل صباح .. ولم ارشف الرشفة الثانية من فنجان الشاى .. انما قمت كالمذهول اسير فى طرقات الحديقة ، وصورة والدك تملأ مخيلتى .. وجهه النحيل كوجه فنان امتص الفن كل قواه ولم يترك الا خيالا ، وعيناه الهادئتان العميقتان اللتان تثقبان صدرى وتنفذان الى اعماقى ، وابتسامته الضيقة كفرجة من امل بعيد لن اصل اليه ابدا ..

وحاولت عبثا ان احدد احساسى فى تلك اللحظة .. احساسى

نحو وفاة والدك .. ولكن الأحاسيس ــ مختلف الأحاسيس ــ كانت تمر فى ذهنى ، كأنها أصناف بضاعة أختار منها واحدة .. الحزن .. والفرح .. والأسف .. والشماتة .. واللامبالاة .. والجزع .. كل هذه الأحاسيس كنت استعرضها فى ذهنى ، دون ان يسقط احساس واحد منها فى قلبى ..

كنت اقول لنفسى : « يجب أن تحزن .. انه الرجل الذى عاش فى صدرك طول حياتك .. انه الرجل الوحيد النظيف الذى التقيت به فى الدنيا .. لقد كنت تحبه .. فاحزن .. احزن جدا حاول أن تبكى » ..

وكنت احاول فعلا ان احزن .. كنت اجمع نفسى واضغط على اعصابى حتى احس بالحزن . وكنت اعصر عينى لعلنى ابكى .. بل خطر لى ساعتها ان ابدل رباط عنقى برباط عنق اسود ..

ولكنى فى نفس الوقت كنت أسمع هاتفا آخر فى نفسى .. هاتفا خبيثا يقول لى : « لماذا تحزن .. ان من حقك أن تفرح .. من حقك ان تشمت بموته .. انه رجل استعصى عليك .. انه رجل عذبك طول حياته .. لم يرض عنك ، ولم يبد لك احتراما ، ولم يقدر لك كفاحك .. لقد كان يقلقك ، ويثير فى صدرك شيئا يكتم انفاسك ويمزق رئتيك .. وقد مات هذا الرجل .. ومات هذا الشىء .. افرح .. اشمت .. تهاد فى مشيتك .. انه انتصار لك » ..

وكان هذا الهاتف قويا ، وكان قريبا جدا من قلبى ، حتى انى كنت اشعر بالابتسامة تكاد تقفز الى شفتى ..

وقد حاولت أن اقاوم هذا الشعور .. حاولت كثيرا ..

كنت ساعتها كأحد هؤلاء المنافقين الذين يسيرون فى الجنازات .. يحاولون ابداء الحزن فلا يستطيعون .. ويتغلب عليهم شعورهم بالشماتة ، فيكتمونه خوفا من أن يفتضح نفاقهم

امام الناس ، ثم يلجئون الى من يسير بجانبهم يبادلونه الحديث حتى يهربوا من نفاقهم .. يهربوا من الحزن والشماتة معا ..

ولم يكن بجانبى احد ابادله الحديث ، لاهرب بالحديث من هذه الأحاسيس المتناقضة التى اثارها فى نفسى موت ابيك ..

وشيئا نشيئا ، رايتنى اخضع للهاتف القوى الخبيث .. انتصر فى نفسى الاحساس بالشماتة .

نعم .. شمت فى موت ابيك !

هدى .. لا تتقززى هكذا .. ولا تلقى خطابى من بين يديك .. ولا تكرهينى الى هذا الحد .. ارجوك يا هدى .. لا تكرهينى .. فانك ان كرهتنى لن تستطيعى فهمى .. وانا محتاج لكل فهمك .. حاولى ان تســيطرى على كل مشاعرك حتى انتهى من خطــابى ، وتنتهى انت منه .. وبعــد ذلك .. اكرهينى !

لقد اكتشفت انْ اباك ايضا كان عدوا لى .. ولكنه عدو يختلف عن بقية اعدائى .. انه عدو يعيش فى صدرى .. عدو احبه !!

وغمرلى شعور الشماتة ..

وتركت ابتسامتى تملأ شفتى .. وتهاديت فى مشيتى بين اشجار الحديقة نشوان بلذة النصر ..

لقد نصرنى الموت على ابيكْ ..

المغفل .. مات !

ماذا اجدته حياته .. ماذا اجــداه الشرف ، والامانة ، والنظافة ، والقناعة .. وماذا اجدته عيناه العميقتان ، ونظرته الثاقبة ، وابتسامته الضيقة .. لقد عاش ومرتبه لا يتجاوز الثلاثين جنيها ، ومات ولم يترك وراءه سوى معاش لا يتجاوز الاثنى عشر جنيها .. المغفل !

وخرجت من قصرى وركبت سيارتى وانا اكاد اطير من النشوة .. ودخلت الى مكتبى وانا احس بقوة لم احس بها من قبل .. قوة غريبة .. قوة مدمرة .. كنت أحس كانى استطيع ان اعصر مصر كلها فى قبضة يدى ، لأستنزف كل قرش فيها واضعه فى خزانتى ..

ودخل على عبد العظيم بك ..

انه دائما اول من القاه صباح كل يوم ، لنراجع سويا سير الاعمال القذرة ، ويتلقى تعليماتى بشأنها ..

وجلس عبد العظيم على المقعد المواجه لمكتبى ، وابتسامة كبيرة تسيل من بين شفتيه الغليظتين الكريهتين .. ابتسامة اكبر من ابتسامة كل يوم .. ثم مال براسه الى وقال فى لهجة احسست انها لهجة تشف :

ــ البقية فى حياة سعادتك !

وتجاهلت ما يقصده ، وقلت فى برود ، وانا ادس عينى فى بضع اوراق حتى اخفى عنه احساسى :

ــ مين ؟ !

قال والتشفى ينضح من كلماته :

ــ محمد افندى السيد .. تعيش سعادتك !

وبذلت جهدا كبيرا لاضغط على اعصابى ، وقلت فى اختصار :

ــ الله يرحمه !

ونظر الى عبد العظيم نظرة ماكرة .. انه لا يصدق هذا البرود الذى ادعيه .. انه يعرف والدك ، ويعرف كيف ربطت نفسى به طول حياتى ، وقد قضى خمسة وعشرين عاما ينقل الى اخباره اولا بأول . فكيف يصدق مثل هذا البرود الذى استقبل به خبر موته !!

واحسست ساعتها انى لست وحدى الذى يشعر بالقوة والنصر بموت ابيك .. بل ان عبد العظيم ايضا يشعر بأنه

ازداد قوة .. ازداد قوة على .. على انا ؟

وخفت يومها من عبد العظيم ..

احسست انى فى حاجة الى مزيد من الحرص ، ومزيد من الدهاء ، لأظل مسيطرا عليه ، آمنا شره ..

احسست أن والدك عندما مات تركنى وحدى لعبد العظيم .. تركنى بلا فرامل .. بلا شيء فى صدرى يثير القلق فى نفسى .. شيء اخافه ، واحاول ان انال رضاءه واعجابه ..

وقد انقدت فعلا لعبد العظيم ..

أو على الأصح انقدت لعقلية عبد العظيم ..

وانقضى أسبوع ارتكبت فيه من الأعمال قدر ما كنت ارتكبه فى عامين أو ثلاثة .. كنت أعمل بلا راحة .. وبلا رحمة .. وبلا تردد .. واستطعت ان افلس احدى الشركات المنافسة .. واستطعت — فى هذا الأسبوع الواحد — ان اسقط وزارة لتحل محلها وزارة أخرى اكثر تفاهما معى .. وتسببت فى حل نقابة عمال « شركة الصناعات المصرية الكبرى » .. وخفضت الأجور .. ورفعت الأسعار .. وبعت للحكومة ثلاثة آلاف طن من البضاعة الفاسدة .. و .. و ..

وعبد العظيم منتش ، فرحان .. انه يجول ويصول ، وينفث شره فى كل مكان ..

وانا جبار .. لا ارحم .. لا أرحم الناس ، ولا أشعر بوجودهم .. كل الناس حشرات تافهة أسحقها بنعل حذائى .. حتى الأعمال الصغيرة التى كنت اكتسب بها مظهر الخير امتنعت عنها .. التبرعات للجمعيات الخيرية ، وشراء تذاكر حفلات الجمعيات ، واعانة النوادى الرياضية ، واعلانات الصحف .. و .. و .. كل ذلك استغنيت عنه .. وابلغت السكرتير بأن يطرد كل مندوبى هذه الجمعيات ، وكل مندوبى الصحف .. هؤلاء الشحاذين .. ما حاجتى اليهم !!

وفى خلال هذا الأسبوع كانت تمر على لحظات خاطفة كنت اخاف فيها من نفسى .. اخاف فيها من الطاقة الهائلة المدمرة التى اطلقتها على الناس .. وفى هذه اللحظات كنت اتذكر والدك .. ولكنى ما كنت اكاد اذكره ، حتى اسمع صراخا يتجاوب فى نفسى : « لقد مات .. مات .. مات .. مات .. مات » ثم أندفع فى عملى ، تطوينى الطاقة الهائلة التى تنطلق من نفسى .. أندفع كانى اجرى فزعا من شبح يطاردنى .. شبح ميت !!

وفى نهاية الأسبوع طرأت على رأسى فكرة غريبة ..

فكرة شاذة ..

لقد فكرت ان ازوركم فى بيتكم !!

لماذا ؟

ربما لأنى لم اكن اصدق نفسى عندما اسمعها تردد ان والدك قد مات .. لم اكن اصدق انه لم يعد فى الدنيا من يستطيع أن يقلقنى او يحرك شيئا فى صدرى .. فأردت ان اذهب الى بيت الميت ، لأتأكد من انه فعلا قد مات ..

وربما لأنى اردت ان ازداد شماتة فى ابيك ، وازداد احساسا بالنصر .. اردت ان ارى الفقر الذى كان يعيش فيه ، والفقر الذى تركه خلفه .. حتى اقنع نفسى بأنى لم اخطىء فى الطريق الذى دلنى عليه ذكائى .. طريق الثراء الكبير ، والجـريمة الكبيرة ..

وقلت لعبد العظيم بعد أن انتهينـا من مراجعة الأعمال القذرة تلت معتمدا على ذكائه اللماح :

ـ يا ترى عيلة محمد افندى السيد ، حالتها ايه دلوقت ؟ !

والتفت الى لفتة حادة كأن رأسه انفصل عن عنقه ، وقال وقد اتسعت عيناه فى ذعر :

ـ احنا لسه ما نسيناش سيرة محمد افندى !!

قالها بلهجة لم يتعود أن يحادثنى بها من قبل .. ونظرت

اليه نظرة صارمة ثابتة ، حتى اضطر ان يرخى عينيه عنى ، ونكس راسه ، وعاد يقول فى صوت ذليل :

ــ الحقيقة انى كنت نسيت المرحوم خالص !

قلت وانا اضع فى كلماتى رنينا جادا يفهمه جيدا عبد العظيم :

ــ لازم الواحد يكون بار بزملائه .. ده كان اعز صديق ايام المدرسة !

وقال عبد العظيم :

ــ كلك خير يا باشا ..

ثم قام منصرفا ، وأنا واثق انه سيتخذ كل الاجراءات التى تكفل زيارتى لكم ..

وقد ارسل لكم احد معاونيه الخصوصيين ليحدد معكم موعدا لزيارتى .. وفى الوقت نفسه اعد مقالا لتنشره احدى المجلات عن تواضع حسين باشا شاكر .. اى انا .. الى حد اننى ذهبت بنفسى لأعزى فى وفاة موظف صغير من زملائى فى المدرسة ..

وحدد الموعد فى الساعة الخامسة من يوم الخميس ٢٥ سبتمبر .. انى لا انسى ابدا التواريخ .. بل ان ذاكرتى تعودت الا تحمل الا ارقاما وتواريخ ..

وذهبت اليك ..

وتعمدت أن اذهب فى سيارة متواضعة من سيارات الشركة ، حتى لا اثير الريبة ، وأنا امر فى شوارع شبرا ..

وذهبت وحدى .. كأنى ذاهب لزيارة قبر عزيز مات ، واريد ان اخلو بذكراه .

ووقفت السيارة أمام بيتكم فى شارع شيكولانى .. ونزل السائق وفتح الباب ، ومددت ساقى لأهم بالنزول .. ولكنى عدت وسحبتها .. وسحبت معها نفسا عميقا من صدرى كأنى استجمع كل قواى ..

لقد احسست ساعتها بالتردد ..

احسست انى مقبل على ارتكاب جريمة اكبر من كل جرائمى ..
احسست كأنى مقبل على انتهاك حرمة قبر .. أنى سأنبش القبر وأسرق الجثة !

وفكرت ساعتها ان اعود .. ان اعدل عن هذه الفكرة الغريبة الشاذة التى يثيرها فى راسى دافع خبيث .. دافع الشماتة فى الموت . والاطمئنان الى ان الميت قد مات ..

ولكن كان الدافع الخبيث اقوى منى .

وكان مقدرا على البيت الكريم الطاهر أن ادنسه بقدمى ..

وكان مقدرا عليك ان افسد حياتك .. وان احيل نضارة شبابك الى رماد .. الى حطام بائسة ..

لا تتعجلى ولا تسالينى كيف افسدت حياتك .. ولا تجهدى ذاكرتك بحثا عما فعلته بك .. انك لن تذكرى شيئا .. انى مجرم اكبر من ان يترك بصمات اصابعه فوق ضحيته .. وانت اطيب من ان تتصورى ان الدنيا يمكن ان تحمل مجرما مثلى ..

دعى الحوادث تحكى لك كل شىء ..

لقد نزلت من السيارة ، وانا لا زلت مترددا ، وقلبى واجف .. وصعدت السلم فى خطوات متلصصة ، كأنى اخشى أن يرانى احد وانا اتسلل اليكم .. ووصلت الى الدور الثالث .. انى اعرف أين انتم .. الشقة التى على اليمين .. ووقفت امام الباب برهة ، التقطت فيها أنفاسى .. ولم يكن صعود السلم هو الذى اتعب انفاسى .. لقد كنت أيامها فى الخامسة والخمسين من عمرى ، ولكن انفاسى لم تكن تتعب من صعود السلم .. انما تعبت من ترددى ، ولعدم اقتناعى بما افعله ..

وطرقت على الباب طرقة خفيفة .. ثم اعدت الطرق ..

وفتحت الباب خادمة صغيرة ، على راسها منديل اسود .. أنى اذكر تماما وجهها .. وجها غبيا يثير الابتسام من فرط غبائه .. وقد فتحت الباب نصف فتحة .. وتلقت اسمى .. قلته لها

بلا لقب .. حسين شاكر .. فأغلقت البـــاب فى وجـــهى .. واحسست انى طردت .. انى اهنت .. احسست ان هذه الغبية الصغيرة قد اكتشفت انى محرم ، وانها أرادت ان تحمى البيت منى .

ولكنها عادت بعد لحظات وفتحت الباب .. فتحته كله .. وقادتنى الى حجرة الاستقبال .. حجرة كسيت كل مقاعدها وأرائكها بأكسية بيضاء .. وادرت نظرى فيها بسرعة .. وعلى الجدار لمحت صورة كبيرة غطيت بملاءة سوداء .. لابد انها صورة المرحوم .. اذن ، فقد مات المرحوم !!

وجلست تحت الصورة المحجبة بالسواد ، والشعور الخبيث يكاد يطلق ابتسامة من بين شفتى .. ولكن هذا الشعور بدا يخف .. بدا يزايلنى .. احسست انه ينفـلت منى ويتركنى فراغا .. احسست بنفس الشعور الحائر الذى انتابنى لحظة قرات نبأ وفاة ابيك .. وانتهت هذه الحيرة بأن احسست بالراحة .. نعم الراحة .. لا ادرى اى نوع من الراحة هى .. ربما الراحة لوجودى فى بيت شريف .. لا ادرى .. ولكن اعصابى بدات ترتخى .. وتسربت الى انفى رائحة هادئة كأنها رائحة بخور .. وكانت النوافذ مغلقة ، والضوء هادئا .. شعرت كأنى فى مسجد .. او كأنى فى مقبرة .. لا ضجيج .. ولا معركة .. ولا اطماع ..

هنا كان يعيش محمد افندى السيد ..

واحسست انى احسده .. لقد قضى حياته كلها فى مثل هذه الراحة اللذيذة المخدرة التى احس بها الآن .. وعندما حسدته بدات ارى حياتى بشعة ، مزعجة ، بلا راحة ..

وانتبهت على صوت اقدام تقترب ..

ودخلت والدتك ، متشحة بالسواد .. ونظرت اليها بكل عينى .. ثم نظرت اليها مرة اخرى .. كنت اريد أن ارى زوجة

زميلى محمد افندى السيد .. كنت اريد ان ارى زوجات الناس الشرفاء .. كأنى ابحث فى وجهها عن انسانة غريبة .. عن سيده ليست ككل السيدات اللائى التقيت بهن فى حياتى ..

ولم ار فى والدتك شيئا مما كنت اتصوره عن زوجة زميلى الشريف ..

انها ليست جميلة الى حد ان يميزها الجمال .. ولكنها تبدو ذكية .. ذكاء تنطق به عيناها ، ويتقدمها فى كل لفتة من لفتاتها ، وفى كل كلمة تنطق بها .. هذا النوع من الذكاء الذى تستطيعين ان تأمنى شره بسهولة .. لانه ذكاء واضح ، وليس مختبئا .. ليس خبثا .. او هو خبث بسيط ساذج .. مكشوف ؟

وتعجبت : كيف استطاعت هذه السيدة الذكية ان تعيش حياتها مع محمد افندى السيد .. كيف استطاعت أن تحصر ذكاءها فى هذا النطاق الضيق .. وخيل الى انها لو كانت موظفة عندى فى احدى شركاتى لاســـتطاعت بسرعة أن تكون مديرة شركة ، او على الاقل مديرة فرع لشركة ..

ومددت لها يدى ، وقلت فى تأثر وأنا لا أزال انظر فى وجهها :

ــ البقية فى حياتك يا هانم ..

قالت وهى تخفض رأسها لتبدو اكثر تأثرا :

ــ حياتك الباقية يا سعادة الباشا ..

وسمعت فى صوتها رنة اعرفها جيدا .. انها رنة التزلف .. والنفاق .. انها رنة الزهو المكبوت عندما يقابل احد الصغار ، كبيرا مثلى .. باشا مثلى !!

ترى لو انى كنت قد التقيت بابيك .. هل كنت اسمع فى صوته هذه الرنة ؟ !

وجلسنا .. ومرت بيننا فترة صمت .. كنت خلالها ابحث عن كلمات اقولها ، وكانت خلالها تنظر الى نظرات مختلسة مترددة ، كانها تتعجلنى لتسمع منى مبررا لزيارتى ، وهى فى نفس الوقت

تخشى الا يكون هناك مبرر الا مجرد تأدية واجب العــزاء ، فيضيع منها « باشا » سقط عليها من السماء .

وقلت كأنى أبدأ مرافعة طويلة :

ــ المرحوم كان اعز اصدقائى . كنا زملاء مع بعض فى المدرسة .. انما للأسف مشاغل الدنيا فرقتنا عن بعض .. ويمكن حتى ما يكونش كلمك عن صداقتنا ..

قالت وهى تمصمص شفتيها ، لا اسفا على وفاة المرحوم ، بل اسفا على الصداقة التى لم تسمع بها :

ــ الحقيقة ان المرحوم ما كانش بيتكلم كتير .. عمره ما حكى لى عن ايامه فى المدرسة .. والحقيقة انه عمره ما جاب سيرة سعادتك !

واحسست باهانة لم احس بها من قبل .. انه كان يضن على حتى بذكر اسمى فى بيته .. ولكنى تمالكت اعصابى ، وقلت :

ــ انما انا دايما كنت فاكره .. و دايما اطمن عليه من بعيد !

وتنهدت .. وقالت :

ــ يديك طولة العمر يا سعادة الباشا !

قلت .. وانا ابحث عن مزيد من الكلمات حتى الزيارة فترة مناسبة :

ــ على كل حال ، اذا كنت ما قدرتش اخدم المرحوم و ، فأنا يشرفنى انى اخدمه بعد وفاته .. وارجو ان تعتبرينى العيلة .. واعتبرينى دايما فى خدمتك ..

قالت ، وهى تتنهد ايضا :

ــ متشكرين يا سعادة الباشا .. كلك خير .. والله المرحو سابنا لايصين .!!

ودخلت الخادمة الصغيرة تحمل صينية القهوة .. سادة ..
والتقطت الفنجان ورشفت رشفة مرة ، ثم عدت أسأل :

ــ المرحوم ساب أولاد كتير ؟ !

وكنت أعرف انه لم يكن له الا انت .. ولذلك لم اهتم كثيرا بسماع الجواب .. وعدت ارشف فنجان القهوة المرة ، بينما والدتك تقول :

ــ ما فيش الا بنتى هدى !!

قلت وانا اضع الفنجان على المائدة :

ــ ويا ترى عرفت معاش المرحوم اد ايه ؟

قالت وهى تلف الطرحة السوداء حول رقبتها ، كأن ذكر المعاش يحتاج الى مزيد من الحزن ، ومزيد من الحداد :

ــ بيقولوا حداشر جنيه ونصف .. انما لسه ما شفناش حاجة ..

قلت وانا ادعى التأثر :

ــ بس .. ده ما ..

وسكت .. لقد أحسست ــ فى هذه اللحظة ــ أن هناك احدا معنا فى الغرفة .. انى لم اسمع صوت اقدام تقترب .. ولكنى احسست ان هناك من دخل .. وخيل الى انى اسمع انفاسا كرفيف الفراشات .. وكنت ملتفتا بكل جسمى ناحية والدتك فأدرت عنقى ناحية الباب بسرعة ..

انها أنت ..

لا .. انه هو !!

وقفزت من مقعدى وقد ملأتنى الدهشة .. دهشة فيها كثير من الذعر ..

لقد رأيتك واقفة عند الباب متشـــحة بالسواد .. ولكن وجهك .. انه الوجه النحيل كوجه فنان امتص الفن كل قواه ولم يترك له الا خيالا .. وعيناك الهادئتان العميقتان اللتان

تثتبان صدرى وتنفذان الى اعماقى .. وشفتاك الرقيقتان كأنهما ورقتا ورد .. وانف اشم ، يبدو كبيرا فى مساحة الوجه النحيل .. وشعر كستنائى فى لون البندق ، ينسدل ناعما فوق عنقك الطويل ..

انك صورة منه ..

صورة من ابيك ..

كل خط ، وكل لمحة ، وكل تعبير .. منقول عنه بالسنتى ، والملى .. منقول بالكربون ..

اذن فهو لم يمت !

احسست ساعتها ان اباك لم يمت ، انه لا يزال حيا فيك .. لقد عاد حيا .. عاد فى عمر الصبا .. فى السابعة عشرة من عمره .. العمر الذى التقيت به فيه لأول مرة .. عاد ليحرك فى صدرى الشىء الذى يكتم انفاسى ويمزق رئتى .. يبدو ان هذا الشىء لا يموت ابدا !!

وتقدمت أنت فى خطوات بطيئة صامتة .. انك لا تبتسمين ، حتى هذه الابتسامة الضيقة كفرجة الأمل التى عرفتها فى ابيك ..

وصافحتك ، وسمعت والدتك تقول :

بنتى هدى ..

وابتسمت لك .. كانت المناسبة — مناسبة العزاء — لا تبيح الابتسام .. ولكنى ابتسمت رغما منى ، كأنى اتودد اليك بابتسامتى ، او ارشوك بها .. وقلت وانا أحرص على ان أضمن صوتى لهجة الوالد :

— البقية فى حياتك يا هدى .. شدى حيلك !

ولم تردى ابتسامتى .. ولم تهتزى .. لم اشعر منك بشىء مما شعرت به نحو أمك .. لم اشعر بأنك تهابين لقاء « باشا » . هو اول « باشا » يدخل بيتكم ، او انك تحاولين تملق هذا الباشا وارضاءه .. انما شعرت بشخصيتك تقف كاملة امام شخصيتى

.. وربما كانت شخصيتك اقوى من شخصيتى ، وان كانت قوتها لا تبدو من خلال رقتك ..

هذا صحيح .. ولو انك ايامها كنت فى السابعة عشرة من عمرك !! وسمعتك تتمتمين ببضع كلمات لم اتبينها جيدا ردا على تعزيتى ، ثم جلست فى المقعد المواجه .. وجلست انا .. ولكنى لم اتخذ لنفسى نفس الجلسة التى كنت اجلسها مع امك .. لم اجلس مهوبا معتدا بنفسى كعادتى .. انما وجـدت نفسى احرص على ان اجلس اكثر تأدبا ، واكثر اهتماما ، واحرص على ان ابدو اكثر تأثرا ، واكثر تمسكا بتقاليد العزاء ..

وسادنا صمت ..

وشعرت بجو حزن لم اشعر به قبل ان تدخلى .. شعرت كأن كل شىء حولى حزين على وفاة والدك .. الجدران ، والمقاعد ، والأرض ، والسقف .. بل شعرت كأنى انا ايضا حزين ..

ومن خلال هذا الجو الحزين بدات احس مرة ثانية بالبيت الشريف .. وبالرائحة الهـادئة كرائحة البخور .. وبالضوء الهادىء ..

ولكنى كنت قلقا ..

بدا الشىء الذى فى صدرى يقلقنى ..

وقلت كأنى احاول ان ابدد هذا القلق :

ــ وهدى بتروح مدرسة ايه ؟ !

واجابت والدتك :

ــ خدت التوجيهية السنة اللى فاتت وقعدت فى البيت !

وقلت موجها الكلام اليك ، كأنى الح عليك ان تتكلمى :

ــ ليه .. مش عايزة تروحى الجامعة ؟

وسمعت صوتك :

ــ بابا ما رضيش !!

وقد قلتها فى حزم واختصار ، كأنكِ لن تسمحى ابدا بمناقشة رغبة والدك .. وفعلا ، احسست بالجبن امام مناقشة رغبة والدك ، والتفت الى امكِ ، وقلت :

ــ انا احب اقول لك يا هانم سِر ما تعرفهش .. وما حدش يعرفه ابدا .. احب ،اقول لك ان المرحوم صاحب فضل كبير على .. انا دلوقتى راجــل غنى .. انما لو ماكنش المرحوم ماكنتش عمرى بقيت غنى ..

وسكت برهة ، حتى الح وقع كلماتى .

ثم قلت :

ــ بعد ما اتخرجت من المدرسة ، وابتديت اشتغل ، استلفت من المرحوم عشرة جنيه . عشرة جنيه بس ، وكانوا كل راس مالى .. وبالعشرة جنيه دول بقيت غنى ..

وسكت ..

وقالت والدتكِ :

ــ البرك عليكِ انت يا سعادة الباشا .. العشرة جنيه ايدك ، مش زى الفَ فى ايد راجل تانى ..

ولم ارد .. انما تنحنحت تواضعا ..

ونظرت اليك ..

ولم يكن يبدو على وجهك شىء .. كنت تنظرين الى فى استطلاع كأنك تأمريننى بأن اتم كلامى ..

وعدت اقول :

ــ انا ما رجعتش العشرة جنيه دول للمرحوم .. عمره ما جه طالبهم منى ، وعمرى ما افتكرت إرجعهم له .. ما افتكرتش الا بعد وفاته .. وانا جاى النهارده علشان اسدد الدين .. انما الدين ما بقاش عشرة جنيه .. الدين بقى ثروتى كلها .. احب اقولك يا هانم انى باعتبر نفسى مسئول عنك وعن هدى من دلوقت .. انتى اختى ، وهى بنتى .. ومش ممكن اسمح لعيلة

صديقى وصاحب الفضل على أن تعيش بمعاش حداشر جنيه ..
وقالت والدتك ، وذكاؤها يتقدم كلماتها ، وأمل خفى يتراقص فوق وجنتيها :
ــ والله أنا محتارة نعيش بيهم ازاى ..
والتفت أنت الى ..
واحسست بعينيك تثقبان صدرى وتصلان الى اعماقى .. أحسست كأنك تتهميننى بالكذب ..
وكنت كاذبا فعلا ..
انها قصة إختلقتها ، ولا ادرى لماذا اختلقتها ، فلم اكن قد اعددتها قبل أن أزورك ، بل لم تخطر ببالى قبل ان اراك .. وربما اختلقتها لأنى احسست انى مرتبط بك .. كما كنت مرتبطا بوالدك .. وخفت أن تستعصى على والدك .. خفت ان افتقدك .. أن تبتعدى عنى ، وتظل نظرتك العميقة الهادئة تطاردنى ، وتحرك فى صدرى الشىء الذى يعذبنى ..
وقد نجحت القصة المختلقة .. وكانت مبررا كافيا لأن اربط حياتك بى الى الأبد .. أو الى ان أموت ..
وعدت اقول لوالدتك :
ــ وناويه تعملى ايه يا هانم .. قصدى ناويه تنظمى حياتك ازاى ؟
قالت وهى تضع يدها فوق خدها ، كأنها تبلغنى مصيبة :
ــ ناوية آخد هدى ونروح نقعد عند اخويا فى دمنهور !
وقلت بسرعة كأنى أحسست فعلا بوقع المصيبة :
ــ وده اسمه كلام .. طول ما انا عايش ، مش ممكن حاجة فى حياتكم تتغير .. تفضلوا عايشين زى ما انتم واحسن شوية !
والتفت اليك وسمعتك تقولين فى حزن عميق ، يحمل معنى التأنيب :
ــ ما دام بابا مش معانا مش ممكن نعيش احسن !

ونظرت اليك والدتك فى حدة ، ثم التفتت الى وقالت وهى تتنهد فى انفعال :

— متشكرين يا سعادة الباشا .. برضه ربنا ما بينساش حد .. اهو المرحوم ما سابش لنا حاجه الا الناس الطيبين اللى زى سعادتك ..

قلت :

— على كل حال يا هانم ، انا ارجو ان تعتبرينى فى مكان المرحوم .. وارجوك ما تعمليش حاجه الا لما تقوليلى .. وانا دايما حاسأل عليكم !

وقمت مستأذنا فى الانصراف ..

وصافحت والدتك ، وانا المح على شفتيها ظل ابتسامة تحاول ان تخفيها .. ابتسامة الامل الكبير الذى اطلقته فى خيالها .. وقالت وهى تحنى رأسها مبالغة فى اخفاء ابتسامتها :

— متشكرين يا سعادة الباشا .. سعيكم مشكور !

قلت ويدها لا تزال فى يدى :

— انا بأدى واجب .. متنسيش يا هانم انى بسدد دين .. دين كبير .. وباذن الله حاتصل بيكم علشان ! ....

وقاطعتنى وهى تضغط على كلماتها :

— انا اخويا حاييجى من دمنهور بعد بكره !!

وسكت .. كأنى فوجئت ...

كنت وانا انظــر الى امك واحادثهـــا انسى اننى فى بيت شريف .. وانسى ان لهــذا البيت تقاليده ، وان من بين تقاليده ان يكون له رجل .. ان لم يكن الزوج ، فهو الاخ .. كنت انسى كل ذلك ، لان ذكاءها الذى يشع من عينيها كان يبدو اقوى من الشرف واقوى من التقاليد .. انه ذكاء اشبه بذكار التجار ، يرى الحياة بيعا وشراء .. ولا اكثر من البيع والشراء .. وكنت اعتقد

انها مستعدة ان تبيعنى ما اريد ، ما دمت مستعدا ان ادفع ما تريد ..

ولكن يظهر انى كنت مخطئا فى تقدير ذكاء امك !

ونظرت اليها بعينين نصف مغلقتين كانى احاول ان اراها من قريب .. كانى احاول ان اصطاد شيئا من اعماقها .. وشددت قامتى كعادتى عندما اقبل على عقد صفقة معقدة .. وسالت نفسى فى لحظة سريعة : هل هى حقا لا تريد ان تلقانى الا فى حضور اخيها .. وهل هو تحفظ منها وحرص على مظاهر الشرف .. ام هو خبث .. مجرد خبث ساذج ؟ !

وسحبت يدى من يدها ، واخرجت محفظتى من جيبى ، واخرجت من المحفظة بطاقة تحمل اسمى ، ناولتها لها قائلا :

ـ على كل حال .. لما ييجى الأخ الكريم ، ارجوك تديله الكارت ده ، وتخليه يفوت على فى الشركة ..

واخذت البطاقة قائلة :

ـ حاضر .. متشكرين يا سعادة الباشا !

وبالمناسبة .. احب ان اقول لك انى احمـل نوعين من البطاقات .. نوعا يحمل اسمى بخط كبير ، وحامل هذه البطاقة لا يستطيع ان يقابلنى ، مهما كانت وعودى له .. ونوعا آخر من البطاقات يحمل اسمى بخط دقيق ، ومن يحصل منى على هذه البطاقة يفتح له بابى ..

وقد اعطيت والدتك بطاقة من النوع الأخير .. فقد كنت اريد ان اقابل خالك .. كنت مستعدا ان اقابل اى انسان .. اى ملاك او شيطان .. لأربط حياتك بحياتك ..

واستدرت اليك .. كنت قد وقفت احتراما لوقفتى .. وكان وجهك النحيل يملأ الغرفة كلها .. ويملأ صدرى .. ومددت يدى اليك قائلا :

ـ شدى حيلك يا هدى .. ربنا يعوضك خير !

وانفرجت شــفتاك كانك تهمين ان تتكلمى .. ولكنك لم تتكلمى !

وسحبت يدى من يدك سريعا ، فقد خيل الى انك ستلمسين الرعشة فيها .. وادرت عينى عن عينيك بسرعة حتى لا ترى من خلالهما أعماقى .. واتجهت الى الباب ، ووالدتك تسير بجانبى تودعنى .. وانت واقفة فى مكانك ، وعيناك احس بهما كانهما تثقبان ظهرى ..

ونزلت السلم ، وانا اتعجب من نفسى ..

مالى وكل هذا ؟

لماذا لا اترك هذا البيت فى حاله ؟ !

ما هذا العبث الصبيانى الذى اقوم به ؟ !

ولكنى رغم ذلك كنت اعلم انى ساعود .. واعلم ان شيئا لن يستطيع ان يقف فى طريقى اليك ..

وخرجت من البيت ، انسانا آخر غير الذى دخله .. لم اكن افكر فى اعمالى هذا التفكير العنيف الاجرامى ، كما كان حالى فى الأسبوع الذى مضى .. لم تعد أعمالى تشغل كل تفكيرى .. أصبح هناك شىء آخر .. اصبح هناك .. انت ..

وعقب خروجى ذهبت لحضور اجتماع مجلس ادارة احدى شركاتى .. ودهش عبد العظيم ، عنــدما رآنى ساهما كانى عاشق ، ودهش اكثر عندما رآنى اطلب تاجيل عدة قرارات كنت قد اتفقت معه على اعلانها .. قرارات كلها تخفى تحتها اعمالا قذرة .. اقذر مما تتصورين ..

وانهيت الاجتماع بسرعة .. ورفضت عقب الاجتماع ان اجلس مع عبد العظيم كما هى عادتى .. وعدت الى بيتى وانا لا زلت افكر .. افكر فيك ..

ولم يكن هذا هو الحب ..

لا يا هدى ..

لم اكن قد احببتك بعد .. انى لم احبك من النظرة الاولى ، ولا الثانية !!

ولكنى كنت افكر فيك تفكيرا غريبا .. كنت احس .كانى احاول ان استعيد صباى .. كانى احاول ان ابدأ من جديد .. منذ اليوم الأول الذى عرفت فيه اباك بعد أن شفيت من مرض التيفويد .. وكان الأمل الذى يراودنى هو أن انجح معك فيما فشلت فيه مع ابيك .. ان اكسب رضاءك واحترامك .. وأن أسير معك فى طريق واحد .. وان اربطك بى .. وكان يخيل الى أنى استطيع ذلك .. واذا استطعته استراح الشىء الذى يكتم انفاسى ويمزق رئتى .

وكنت اقول لنفسى : « انها صغيرة .. وهى لا تعلم عن حياتى شيئا ، ولا تفهمها .. ومن السهل ان اخفى عنها اخطائى ، وشرورى ، واعمالى القذرة .. بل انى استطيع الآن ان استغنى عن هذه الأخطاء والشرور .. وعن هذه القذارة .. لقد اصبحت غنيا .. ولست فى حاجة الى مزيد من الغنى .. فما حاجتى الى القذارة .. انى استطيع الآن أن ابدأ من جديد .. ابدأ شريفا كوالدك .. وان اكسب ثقتك واعجابك كدليل يقنعنى بانى اصبحت شريفا فعلا » ..

كنت اقول هذا الكلام وانا اتعجب من نفسى .. انى احاول شيئا عجيبا .. هل تعرفين ما كنت احاوله .. كنت احاول ان اشترى الشرف .. نعم .. حاولى ان تفهمى .. كنت احاول ان اشترى الشرف .. وكان الشرف بالنسبة لى يتمثل فى انسان بسيط وموظف صغير هو والدك .. ثم اصبح يتمثل فيك .. فى فتاة بسيطة ، وجهها نحيل ، وشعرها فى لون البندق .. وقد عجزت عن شراء ابيك ، فلو أستطعت شراءك .. فقد اشتريت الشرف !!

ولا اقصد بالشراء ، مجرد دفع الثمن بالنقود .. فقد كنت

مستعدا ان ادفع الثمن بأى عملة .. ادفعه من جهدى وذكائى ، بتغيير مجرى حياتى كلها ..

هذا ما كنت اتخيله ..

وهذا ما كنت افكر فيه ، وانا راقد فى فراشى ..

وتقلبت على جنبى ، تصـــدمتنى صورة زوجتى موضوعة بجانب الفراش .. وامتعضت .. لويت شفتى تقززا .. ان هذه الصورة موضوعة هنا دائما ، ولكنى لم اكن اراها .. كانت قطعة من قطع الأثاث .. موجودة ولكنى لا احس بوجودها .. فلماذا احسست بها اليوم ؟ !

— ٢ —

انك سمعت عن زوجتى .. زوجتى الانجليزية .. ولكنك لا تعرفينها .. ويبدو انى يجب ان احدثك عنها . وعن حياتى معها ، حتى تكتمل حقيقتى امام عينيك ..

دعينى أقدم لك زوجتى الانجليزية ..

وأقول « زوجتى الانجليزية » ولا اقول « زوجتى » فقط ، لأنى اعلم ان كل الناس يدعونها دائما « زوجته الانجليزية » زوجته الانجليزية ذهبت .. زوجته الانجليزية جاءت .. زوجته الانجليزية مرضت .. لا احد يقول ابدا « زوجته » .. دائما « زوجته الانجليزية » .. كأنهم يتعمدون اهانتى !!

وأنا استحق هذه الاهانة !

فقد تزوجتها لأنها انجليزية !!

فقط ، لأنها انجليزية !!

كان ذلك عام ١٩٢٧ .. وكنت أيامها لا ازال اعمل فى مقاولات الجيش البريطانى .. جيش الاحتلال .. وكان مـــركز عملى فى بورسعيد .. ولم اكن اكتفى بمجهودات عبد العظيم بك — أو افندى — فى رشوة الضباط الانجليز ، ولا بالليالى الحمراء التى يعدها لهم .. بل كنت احاول ايضا ان اتقرب الى عائلات الضباط .. وكنت شابا .. لم اكن جميلا .. ولكنى كنت فحلا .. وكانت فحولتى والسمرة التى تلفح وجهى ، تثير النساء الانجليزيات

.. كنت ارى عيونهن تشتهينى ، وشفاهھن تكاد تأكلنى .. ولكنى كنت دائما حريصا على تجاهل عيونهن وشفاههن ، لا تعففا منى ، بل لأنى لو لبيت نداء واحدة فسأغضب الباقيات ، ولو اغضبت واحدة فقد يثور على جيش الاحتلال كله ..

ولذلك حرصت على ان اعرف بين العائلات الانجليزية بأنى انسان مهذب .. جنتلمان !!

الى ان كان يوم ..

ودعانى أحد الضباط الى كأس نتناوله فى النادى الخاص بهم داخل المعسكرات .. وهو شرف كبير لا يناله الا القليل من المصريين امثالى !

وهناك رأيتها ..

فتاة سمينة .. بعكس أغلب الفتيات الانجليزيات المشهورات بالنحافة .. انها قطع من اللحم بعضها فوق بعض .. وملامح وجهها غاصت فى هذا الكوم من اللحم ، فلم تعد يبدو منها عينان ولا انف ولا شفتان .. وساقاها لا خطوط فيهما كأنهما عمودا تليفون ، وذراعاها عريضتان ، لونهما أحمر كأنهما فخذا خنزير مسلوق ..

هل تعتقدين انى بالغت فى وصف بشاعتها ؟ ثقى انى لا ابالغ ، فهكذا رأيتها لأول مرة !

ورغم ذلك فقد اهتممت بها عندما قدمنى اليها صديقى الضابط الانجليزى .. وبالغت فى الاهتمام بها .. وبدوت امامها فى اجمل صورة للجنتلمان .. فقد كانت تحمل شيئا جميلا .. جميلا جدا .. كانت تحمل الجنسية الانجليزية !

ولم الح فيها ــ عندما رأيتها لأول مرة ــ شيئا مما تعودت ان الحه فى عيون النساء الانجليزيات وشفاههن .. ربما لأنى لم اكن اكاد أرى عينيها وشفتيها وسط كوم اللحم الذى تحمله فوق

كتفيها .. وربما لأنها كانت قد فقدت ثقتها فى نفسـها الى حد اليأس ، فلم تعد تشتهى الرجال ..

وخرجنا نحن الثلاثة ، بعد أن شربنا عدة كئوس ، نطوف ببعض ملاهى بورسعيد .. ثم ودعتهما ، وعدت الى بيتى .. ونسيتها قبل ان اصل الى الباب ..

وفى الصباح جاءنى عبد العظيم يهرول فى جلبابه الكالح — وكان ايامها لا يزال يرتدى الجلباب وفوقه المعطف الأصفر — وقال وكلماته تتزحلق فوق شفتيه الغليظتين :

— تعرف مين البنت اللى كانت معاك امبارح ؟

قلت بلا اهتمام :

— البت المكلبظة ..

قال عبد العظيم كأنه يلومنى :

— ايوه المكلبظة .. مين تبقى المكلبظة دى !

قلت وقد اثارنى اهتمام عبد العظيم :

— لأ .. تبقى مين ؟

قال كأنه يلقى قنبلة :

— تبقى بنت الكولونيل ديفيز .. الكما...

وقلت مبهوتا :

— لا يا شيخ ..

قال وهو يهنىء نفسه :

— وحياتك عندى .. دى انا عارفها .. ساعة ما بتمشى وسط المعسكر ، العساكر كلهم يتنطروا واقفين وياخدوا تعظيم سلام ..

وتركنى عبد العظيم وانا افكر فى مشروع ضخم للاستيلاء على جميع مقاولات الجيش البريطانى ، بل جميع مشروعات الحكومة المصرية ايضا ..

ان الكولونيل ديفيز هو مدير الأشغال العسكرية بالجيش البريطانى .. ولكن نفوذه كان يمتد الى جميع امكانيات مصر ...

فقد كانت كل امكانيات مصر فى خدمة الجيش البريطانى .. وكان فوق ذلك صديقا شخصيا للمندوب السامى البريطانى .. لم يكن ابدا مجرد « كولونيل » انجليزى !

وقلت لنفسى : « لو استطعت ان استولى على بنت ديفيز ، فقد استوليت على ديفيز ، واذا استوليت على ديفيز ، فقد استوليت على المندوب السامى ، واذا استوليت على المندوب السامى فقد استوليت على مصر » !

انها مجرد عملية حسابية بسيطة .. كما ترين !!

وبدات فى تنفيذ مشروعى الضخم ..

بدات ارسم خطواتى فى حرص ، وصبر طويل .. كان يجب الا ابدو مهتما بالفتاة اكثر من اللازم .. والا الاحقها .. انى اعرف هؤلاء الانجليزيات ، اقصد الانجليزيات اللائى كن يقمن فى مصر ايام الاحتلال .. انهن متغطرسات .. وملاحقتهن تزيد من غطرستهن ، ومن احساسهن بالسيادة .. واحساسهن بوضاعتنا !

وسعيت كى ادعى الى نادى الضباط اكثر من مرة .. ذهبت الى هناك ثلاث مرات ، دون أن التقى بها .. ثم رايتها فى المرة الرابعة .. ولم اقبل عليها .. بل تركتها تحيينى من بعيد .. ثم صبرت الى ان قامت وجاءت لتنضم الينا ــ صديقى الانجليزى وانا ــ ونحن واقفان الى « البار » ..

وبدوت امامها كما راتنى عندما التقيت بها اول مرة .. انسانا مهذبا .. جنتلمان .. ولكنى كنت اختلس النظر اليها خلسات لا تلمحها .. كانت نظرات ابحث بها عن ملامح وجهها التى غاصت فى كوم اللحم .. وعن ساقيها ، كانهما عمودا تليفون .. وعن ذراعيها كانهما فخذا خنزير مسلوق .. وكنت اسائل نفسى : « هل هذا الشىء يصلح زوجة لى » !!

وكنت اشعر بقشعريرة تكاد تثقب امعائى ، وانا اتصورها

زوجة لى . راقدة بجانبى فى فراش واحد .. لا لأنها سمينة .. فقد كانت السمنة ايامها احدى مميزات الجمال ، وكنت لا أتقزز عندما اجد فى فرشى امراة سمينة .. انما كنت اتقزز لأن « سمنتها » كانت تطغى على كل خطوط جسدها ووجهها .. كانت اشبه ببالة القطن المكبوس .. وكانت تحيط بها ريح ثقيلة . كأنها تملأ فراغا اكبر مما يحتله جسدها .. لم يكن فيها الا شيء واحد جميل .. شيء آخر بجانب الجنسية الانجليزية .. قلبها .. كان لها قلب طيب كريم ساذج .. وكانت تهب حنانها لكل شيء حولها .. وتضحك لكل شيء تسمعه او تراه .. وتبكى عندما لا تجد شيئا تضحك له او تهبه حنانها ..

ولكن ماذا يجدينى قلبها ، فى فراشى !!

ورغم ذلك فقد اهتممت بها ليلتها .. اعطيتها كل ما املك من ذكاء ولباقة .. اضحكتها كثيرا ، واسعدتها .

وقبل ان نفترق دعوتها هى وصديقى الضابط الانجليزى ، الى العشاء فى الأسبوع التالى .. ولم احدد اليوم .. انما وعدت بأن اتصل بهما لتحديد الموعد .

وبعد ايام ارسلت لها خطابا رقيقا ادعوها الى العشاء يوم الأحد فى الفندق الذى كان يطلق عليه الأهالى اسم « البيت الحديد » .. لأنه قائم على عمد من حديد ..

وارسلت نفس الخطاب الى صديقى الضابط الانجليزى .. ولكنى تعمدت أن يصل اليه خطابى فى مكتبه بعد ظهر يوم السبت ، حتى لا يتسلمه ، فى يومى السبت والأحد ..

ولا تنسى أن التليفون لم يكن قد انتشر فى مصر بعد !!

وجاءت وحدها ، فى سيارة يقودها جندى بريطانى .. ولم يكن فى بورسعيد كلها الا خمس سيارات خاصة ، هذه احداها ..

جاءت ترتدى ثوبا للسهرة تبدو فيه كمنطاد زبلن .. واستقبلتها وانا ارتدى حلة « سموكنج » كعادة الانجليز فى سهراتهم .. ولم

اضع الطربوش على راسى حتى ابدو اكثر تحررا من مصريتى .
وكنت قد أعددت مائدة لثلاثة .. وجلسنا نشرب كئوس الويسكى فى انتظار الصديق الذى لم يحضر ، بينا عيون المصريين الذين يحيطون بنا ، تكاد تشهق .. ثم تنحسر شهقتها عن نظرات غل وحسد ، وهم يروننى جالسا مع ابنة الكولونيل ديفيز ..

وبعد قليل انستنا كئوس الويسكى صديقنا الغائب .. وسلطت عليها ذكائى ولباقتى .. واهتزت بالة القطن من الضحك ، ومن فرط السعادة ..

وقمت أراقصها .. وكنت قد تعلمت الرقص منذ بدات احاول ان اكون « جنلتمان » ، ومنذ بدات اسعى الى التعرف بعائلات الضباط الانجليز .

وحملت بالة القطن بين ذراعى .. وراقصتها « التانجو » ، و « الفالس » ، ولكنى رفضت ان اراقصها « الشارلستون » .. فقد خفت ان يضحك عليها وعلى المصريون الجالسون حولنا ، وهم يروننا نقذف بسيقاننا واذرعنا فى الهواء كاننا نحاول ان نتخلص منها ..

وفى خلال الرقص ايضا حرصت على ان اكون « جنتلمان » .. ولكنى تعمدت ان اوقعها فى حيرة .. كنت التقى بعينيها فانظر اليها نظرة فيها حب واشتهاء .. ثم اسحب نظرتى سريعا قبل أن تتاكد منها .. وكنت ادع خدى يلامس خدها ، وقبل ان تستريح على خدى ، ابتعد سريعا .. وكنت احرك يدى فوق ظهرها ونحن نرقص ، وقبل ان تسرى حرارة يدى فى جسدها ، اقف يدى عن الحركة .. وأروى لها نكتة مهذبة !

وشربت كثيرا ليلتها ، كانها كانت تحاول ان تنسى بالكأس حيرتها .. او كانها كانت تحاول ان تجد فى الكاس جوابا على عشرات الاسئلة التى اثرتها فى راسها : لماذا اهتم بها كل هذا

الاهتمام ؟ .. وما معنى هذه النظرة ؟ .. وما معنى هذه اللمسة .. و .. و .. ؟ !

وكانت الساعة الثانية صباحا ، عندما ودعتها عند باب سيارتها .. والجندى البريطانى يفتح لها الباب ، ويرفع يده بالتحية العسكرية ..

ودعتها دون ان احدد معها موعدا للقاء ..

وتريثت قليلا قبل ان تركب السيارة . ولمحت عينيها بين كومة اللحم التى تشكل وجهها ، لمحتهما حائرتين كانهما تسالانى : متى اراك ؟ !

ولكنى لم اجب العينين الى سؤالهما ..

ومضى اسبوع لم احاول خلاله ان اتصل بها .. كنت اريد ان أزيد من حيرتها .. وكنت احاول ان اتركها تسعى الى وتلاحقنى .. ليس هذا فقط .. فقد كنت خلال هذا الأسبوع أحاول ان اراجع نفسى .. كنت احاول اى اقنع نفسى بأن اعدل عن هذا المشروع .. وكنت اتذكر زميلى محمد افندى السيد ، واتساءل : هل يرضى عن مثل هذا الزواج ؟ ! ويجيئنى الجواب فى صورة شىء يتحرك فى صدرى ، ويكاد يكتم انفاسى ، ويمزق رئتى .. شىء يقلقنى ، ويعذبنى !

ليس هذا فقط .. فقد كانت انفاس اليزابث لها رائحة عجيبة .. رائحة اشبه برائحة خميرة البيرة .. وانا اكره البيرة واكره رائحتها !

ولكن ..

فى نهاية الأسبوع ، وصلتنى دعوة منها الى حفلة ساهرة تقيمها فى بيتها .

حفلة فى بيت الكولونيل ديفيز ..

حاولى ان تتصورى هذا .. مقاول صغير مثلى لا يزال

فى بداية الطريق ، يدعى الى بيت مدير الأشغال العسكرية بالجيش البريطانى !!

ولا تنسى اننا كنا فى عام ١٩٢٧ ..

وكدت اطير من الفرح .. وطغت فرحتى على ترددى .. نسيت محمد افندى السيد .. ونسيت رائحة انفاس اليزابث .. ونسيت الساقين اللتين تشبهان أعمدة التليفون ، والذراعين اللتين تشبهان فخذى الخنزير المسلوق .. نسيت .. وانطلقت فى خيالى آمال كبار .. رأيت خريطة مصر كلها منشورة امامى ، ولى فى كل مكان منها مصنع .. ومشروع .. وعزبة !!

وذهبت الى الحفل مرتديا الحلة « الاسموكنج » ، وفوق راسى طربوش طويل فاقع اللون ، فقد كنت أعلم ان الانجليز يحبون أن يزينوا حفلاتهم بهذه الطرابيش الحمراء .. انها مظهر من مظاهر سيادتهم ؟!

واستقبلتنى اليزابث عند الباب فرحة .. بل اغرقت فى الضحك بمجرد ان رأتنى ، فقد تذكرت بعض النكات التى رويتها لها ؟ !

ثم قدمتنى الى والدها الكولونيل ديفيز .. والى امها ، مسز ديفيز ، ثم ظلت بجوارى طوال الحفل ، فاصبحت بها كانى ضيف الشرف .. وقدمتنى الى كل المدعوين .. اسماء يسمع بها المقاولون امثالى من بعيد ولا يقتربون منها ابدا .. اسماء كبيرة .. اسماء تحتل مصر ؟ !

ولم اضيع وقتا .. عصرت ذكائى كله لأربط نفسى بهؤلاء السادة الانجليز .. لم اكن افعل اكثر من ان اتحدث .. ولكن الحديث ليس فنا سهلا .. انه اشق مهمة فى الحياة .. ولو سألتنى كيف استطعت ان انجح وان اجمع ثروتى ، لأجبتك ببساطة : لقد عرفت كيف اتحدث !

وقد عرفت ليلتها كيف اتحدث .. لم اكن انافق نفاقا مفضوحا

سمجا . أن النفاق قد يرضى غرور من أنافقه . ولكنه لا يربطنى به . ولا يكسبنى ثقته .. انما كنت أسوق آراء فى مختلف المسائل ... فى المسائل السياسية . وفى المسائل الادارية ، وفى المشاريع العمرانية .. آراء تبدو كأنها تمثل ايمان رجل مصرى متحمس لمستقبل وطنه .. ولكنها فى الوقت نفسه تحقق المصالح الانجليزية . وتعترف بوجود الانجليز ..

وقد كسبت بهذه الآراء ثقة الجميع ، وعلى رأسهم الكولونيل ديفيز ..

واليزابث دائما بجانبى ..

ولم يغضب أحد من الانجليز الشبان المدعوين معى . وهم يرون اليزابث ملتصقة بى .. انها حمل ثقيل يسر كل شاب أن يتخلص منه .. وربما حمدوا لى أن حملت العبء عنهم ..

وفى نهاية الحفل خرجنا ــ اليزابث وأنا ــ الى الشرفة .. وفى يد كل منا كأسه .. وأخذت أروى لها مزيدا من النكات المهذبة .. وهى تهتز كالزلزال لكل نكتة .. ولم تكن تتكلم .. انها لا تعرف كيف تتكلم . فقط تعرف كيف تضحك وتبكى .. كنت أنا الذى أتكلم طول الوقت . ثم فجأة توقفت عن الحديث .. وأمسكت بيدها وضغطت عليها .. ضغطت بشدة حتى تسرى ضغطتى خلال أكوام اللحم الى أن تصل الى أعصابها وحسها .. ولكنها لم تهتز .. ولم تفهم لضغطة يدى معنى .. ظلت فاغرة فاها كأنها تستعد لضحكة جديدة تطلقها ردا على نكاتى .. واقتربت منها .. واقتربت أكثر .. وضغطت على أعصابى حتى أحتمل رائحة خميرة البيرة تنطلق مع أنفاسها .. ثم ملت عليها وقبلتها فوق وجنتيها ..

وابتعدت ..

ونظرت الى عينيها اللتين تطلان من خلال كومة اللحم ..

وكانت فى عينيها دهشة .. دهشة أشبه بالغباء .. ربما

لأنها لم تصدق أن شابا يمكن أن يسعى لتقبيلها ، وربما لأنها باردة الحس ، الى حد أن قبلة واحدة لا يمكن أن تثيرها ..

ورغم ذلك فقد مدت وجهها الى ، كأنها تطلب القبلة الثانية .. ولم اعطها اياها . انما وضعت الكأس من يدى فى حركة تمثيلية كأنى عاشق ولهان .. ثم قلت بصوت متهدج :

ــ سعدت مساء !

واعطيتها ظهرى ، وخرجت من الشرفة وهى تجرى خلفى ..

وصافحت من وجدتهم من المدعوين .. وصافحت الكولونيل ديفيز ، ومسز ديفيز .. وعدت الى بيتى ..

عدت متعبا ..

لم اتعب ابدا مثلما تعبت فى تلك الليلة ..

ان تعمد النجاح فى حفلة من الحفلات الاجتماعية ، عمل شاق متعب !!

وقمت فى صباح اليوم التالى لأتم خطتى ..

ارسلت لاليزابث هدية .. علبة فضية عليها نقوش فرعونية .. وتلقيت منها دعوة الى تناول الشاى .. ودعوتها بعد ايام الى العشاء .. ثم اصبحت أزورهم بلا تكليف .. وانتشر خبر صداقتى لعائلة الكولونيل ديفيز فى المدينة كلها . وفجأة ارتفعت من مقاول صغير مغمور الى شخصية هامة .. كبار الموظفين يتوددون الى ، وكبار التجار يسعون الى صداقتى ، وزملائى الذين يشتغلون فى المقاولات قبل ان اشتغل بها بسنوات ، بدءوا يعرضون على ان اشاركهم فى العطاءات التى يتقدمون بها ..

كل هذا من اجل الكولونيل ديفيز !!

وبفضل صداقة الكولونيل ديفيز استطعت ان احصل على أول مقاولة كبيرة فى حياتى .. مقاولة تزيد قيمتها على عشرة آلاف جنيه .. وعندما حصلت على هذه المقاولة ، خلع عبد العظيم افندى الجلباب والمعطف الأصفر ، وارتدى الحلة ، وقميصا ذا ياقة

منشاة عالية ، يبدو راسه فوقها كراس مضحك السيرك .. لقد اتسعت اعمال عبد العظيم .. ولم تغننى صداقة الكولونيل ديفيز عن عبد العظيم ، بل زادت حاجتى اليه .. أصبحت فى حاجة الى رشوة مزيد من الضباط الانجليز ، واعداد الليالى الحمراء لهم .. والى مزيد من عمليات التجسس على زملائى المقاولين ، وعلى العمال .. الى مزيد من الأعمال القذرة !!

ولم يكن الكولونيل ديفيز رجلا سهلا كما تعتقدين .. كان رجلا حريصا أزرق الناب .. وكان اشد ما يحرص عليه ألا استفيد من صداقته اكثر مما يريدنى ان أستفيد ..

وكنت اريد ان اتغلب على حرصه هذا .. كنت اريد ان امسك به من عنقه ، وهزه بشدة لأسقط من جيوبه كل المقاولات التى اريدها ..

وعنق الكولونيل ديفيز ، هو : ابنته !

ولكن ابنته لا تتحرك .. انها من السذاجة والغباء ، بحيث لا تستطيع ان تحب ، ولا ان تخطو نحو الرجل الذى تحبه خطوة .. وقد صبرت عليها طويلا حتى تخطو خطوة اخرى نحوى .. أن تشجعنى على ان اطلبها للزواج .. فلم تفعل .. ظلت مكتفية بما اعطيه لها .. معتقدة ان هذا هو كل ما تستطيع ان تناله منى .

وكان يجب ان اشدها نحوى خطوة اخرى ..

كان يجب ان اذيب هذا الجبل من الشحم . لامسك بروحها بين يدى ..

كنت اريد ان اسيطر عليها سيطرة كاملة ..

وكنت أومن بأن الرجل لا يستطيع أن يسيطر على المراة الا اذا سيطر على جسدها .. سيطر على حاجة جسدها اليه ..

وكنت واثقا من نفسى ..

كنت فى شبابى استطيع ان اسيطر على جسد اى امراة ..

كانت المسألة بالنسبة لى مسألة اعصاب .. مجرد مسألة اعصاب ... لا عاطفة ، ولا تجاوب ، ولا اى شىء آخر .. مجرد اعصاب قوية أستطيع ان استعملها كيفما شئت ، الى ان تخضع المراة .. اى امراة .. واى نوع من النساء .. نساء الشوارع .. او نساء الصالونات !!

المسكينة ..

لقد قدر عليها ان تخضع لى .. الى الابد !

وكنا مدعوين فى حفلة ساهرة ، وشربت اليزابيث ليلتها كثيرا .. ثم عرضت عليها أن اصحبها الى بيتها .. فسعدت بالدعوة ، انها دائما سعيدة وهى بجانبى .. وامرت سائق سيارتها بالانصراف ، وركبت معى حنطور .. وفى الطريق عرضت عليها أن تزور مكتبى .. ووافقت .. بسرعة .. كأنها تنتظر هناك شيئا يجعلها تضحك اكثر .

وكنت استاجر بناء صغيرا فى اطراف الحى الأفرنجى ببورسعيد .. مكونا من دورين .. الدور الأرضى خصصته للمخازن ، والدور العلوى للمكتب ..

وكان عبد العظيم ينتظرنى هناك .. وكان قد اعد كل شىء !!

ودخلت اليزابث وهى تدير عينيها فيما حولها ، وفمها مفتوح تأهبا للضحك .. واغلق عبد العظيم الباب وراءنا .. وجلس لخلفه يؤدى واجبه .. ان عبد العظيم يجيد دائما تأدية هذا الواجب !!

وبدات اداعب اليزابيث ، وهى تضحك ، ويهتز منطاد زبلن مع ضحكاتها .. ثم اقتربت منها .. واحطتها بذراعى .. ضممتها الى صدرى بكل قواى كأنى اصارع فيلا .. ثم اطبقت بشفتى على شفتيها حتى اسكتها عن الضحك .. ولم استطع ان ابقى شفتى على شفتيها طويلا .. كانت رائحة خميرة البيرة اعنف من

ان احتملها لأول وهلة .. كانت هذه الرائحة تتطلب منى مزيدا من الذهب .. ومزيدا من الضغط على أعصابى ..

وقالت اليزابث بانجليزيتها المترنحة ، وانا انك ذراعى عن جسدها :

ـــ هل كل المصريين اقوياء هكذا !!

قلت فى صوت جاد :

ـــ اننا اقوياء عندما نحب !

وسكتت برهة عندما سمعت كلمة الحب .. كأنها لا تصدق اذنيها .. ثم عادت تضحك كأنها اعتبرت ما سمعته نكتة اخرى .. ولكنى لم اشاركها الضحك .. بل وقفت أمامها صامتا ، وفى عينى نظرة خطيرة .. وبقيت صامتا وفى عينى هذه النظرة الخطيرة .. حتى كفت عن الضحك .. ورأيتها حائرة .. لا تدرى سر صمتى .. ولا تدرى ماذا يجب ان تقول او تفعل .. كأنها اكتشفت فجأة انها تائهة .. تائهة فى ..

وبخطوات ثابتة .. خطوت نحو النور واطفأته .. كنت فى حاجة الى الظلام ، لأتمكن من السيطرة على أعصابى .. ثم عدت اليها وامسكتها من يدها واجلستها على الأريكة .. واحطتها بذراعى مرة أخرى .. شممتها بكل قواى .. واطبقت بشفتى على شفتيها ..وحاولت ان أغلق طاقة انفى حتى لا اشم رائحة انبيرة ، ولكنى لم استطع الا ان اغلق عينى !!

وملت بها فوق الأريكة .. وهى مستسلمة .. صامتة .. ونزعت عنها ثيابها .. وهى مستسلمة صامتة .. ان كومة الشحم لم تذب بعد .. اريدها ان تذوب .. اريدها ان تلهث .. ان تتحرك .. ان تتمنى ..

وصبرت ..

وبدأت انفاسها تتلاحق .. ورائحة خميرة البيرة تنطلق فى

وجهى كالزوبعة .. بدات تذوب .. وتتحرك .. و .. و .. و .. و ..

. . . .

. . . .

هدى :

لا تفزعى وانت تقرئين هذه السطور ، ولا تصرخى كانك رأيت ثعبانا تحت قدميك .. ارجو الا تفزعى ، ولا تغطى وجهك البرىء بيديك .. ارفعى يديك عن عينيك .. وانظرى الى فى هدوء .. انى أريدك ان ترينى كما انا .. اريدك أن ترى المجرم الذى افسد حياتك .. ترينه عاريا .. ولعلك لاحظت انى افيض فى سرد جرائمى .. ان كل هذه الجرائم ليست الا مقدمة للجريمة الكبرى .. الجريمة التى كنت انت ضحيتها .. مقدمة اتعمد ان اطيل فيها حتى اخفف عليك من وقع الصدمة الأخيرة .. وقدرى اننى اعترف .. اعترف لك انت وحدك .. ولم أكن فى حاجة الى الاعتراف ، لولا اننى احببتك !

ثم لا تسألينى عما اذا كنت قد وجدت زوجتى عذراء فى تلك الليلة أم لا .. انه سؤال ساذج .. لم يخطر على راسى ولا على رأسها .. ولكن اسألينى : ماذا حدث لها بعد ذلك ؟ .

لقد تغيرت ..

كفت عن الضحك .. كأنها دخلت فى عالم ساحر عجيب ، لم تكن تدريه ، ولا تتخيله .. وقفزت الى عينيها هذه النظرة النهمة التى كنت ألمحها فى عيون النساء الانجليزيات ، وهن يلتقين بفحولتى ..

واصبحت تطاردنى ..

تسعى ورائى ..

لقد ملكتها .. سيطرت عليها !!

ولكنى تركتها تجوع .. جاعت أياما طويلة حتى كادت تجن ..

وخيل الى انها فى هذه الأيام ، قد فقدت كثيرا من سمنتها .. بدات اعصابها تاكل فى كوم اللحم .. وكنت الاقيها .. واحاول كعادتى ان املأ فمها بالضحك .. وان اروى لها نكاتى .. ولكنها لم تكن تريد الضحك .. كانت تريد دائما ان تذهب الى مكتبى !!

ولم ادعها تذهب اليه ..

الى ان قالت لى يوما ، ونحن فى شرفة بيتها .. قالت فى لهجة كائسة كانها سقطت اعياء من شدة الجوع :

ـــ هل صحيح انك تحبنى .. لقد سمعتك مرة تحدثنى عن الحب ؟!

وكسوت وجهى بملامح جادة ، وقلت وانا ادعى الارتباك :

ـــ انى احب الى حد انى افكر فى الزواج !

قالت وهى دهشة :

ـــ ماذا تعنى ؟

قلت وانا انظر اليها :

ـــ اعنى انى اريد ان اتزوجك !!

قالت صارخة :

ـــ تتزوجنى انا ؟ !

قلت وانا ادعى الجزع :

ـــ اترفضين ؟ !

قالت كأنها تزغرد :

ـــ ارفض ، هل انا مجنونة !! الا تعلم .. !!

وقبل ان تتم جملتها سحبتنى من يدى ، وخرجت بى من الشرفة الى حيث كان يجلس والداها .. وقالت لهما صارخة :

ـــ لقد اتفقت انا وحسين على الزواج !

واسقط الكولونيل ديفيز الجريدة من امام عينيه ، ورفع غليونه من بين اسنانه ، ثم قام من مقعده فى منتهى الهدوء ، وتقدم الى يصافحنى قائلا :

ــ مبروك ..
بينما احتضنت مسز ديفيز ابنتها ثم جاءت تقبلنى ، قائلة :
ــ لم اكن انتظر ان يكون لى ابن مصرى ..
وصاح الكولونيل :
ــ اظن اننا يجب ان نشرب كاسا !
وهكذا تزوجت !!
اى زواج هذا ! ؟

لقد عرفت زوجتى المسكينة بعد فترة قصيرة . ماذا كان يعنى زواجنا .. عرفت ان زواجنا مجرد عملية بيع وشراء .. تبيعنى نفوذها ونفوذ ابيها ، لتشترى ما يشبع جسدها .. لقد عودتها الا تنالنى الا اجرا على صفقة ساعدتنى على اتمامها ..

وقد ساعدتنى فى كثير من الصفقات .

كانت تطلب من ابيها صراحة ان يساعدنى .. وكنت اقول لها ان الجيش البريطانى سيطرح مناقصة عن مشروع كذا ، فتذهب الى ابيها وتصر على ان ترسو هذه المناقصة على ، حتى لو تقدمت بأسعار اعلى من اسعار بقية المقاولين .. ولم يكن ابوها يستطيع ان يرد لها طلبا .. انها ابنته الوحيدة ، وانا زوج ابنته الوحيدة .. وعندما ترسو المناقصة على . كانت الابنة تنام سعيدة ؟ !

واصبحت فى يدى كل مناقصات الجيش البريطانى .. ولم أكن من الغباء بحيث استولى عليها كلها وحدى ، بل كنت اترك بعضها لزملائى من كبار المقاولين ، على ان اشاركهم فيها ؟ !

ان رجل الأعمال الماهر ، يجب الا يترك الفرصة لمنافسيه حتى يتحدوا ويتالبوا عليه .. بل يفرق بينهم دائما .. ان يشارك واحدا منهم فى هذه العملية .. ويشارك الثانى فى عملية اخرى .. حتى لو ضحى فى سبيل ذلك ببعض اطماعه .. وهذا ما كنت أفعله !

وعن طريق زوجتى اصبحت صديقا شخصيا للمندوب السامى البريطانى .. صديق العائلة .. وكنت ادعى الى اخص الحفلات التى تقام فى دار المندوب .. حفلات عائلية صغيرة ، لا يحضرها الا اربعة او ستة من المدعوين ، ليس بينهم مصرى الا انا ..

وعندما عرفت المندوب السامى ، عرفت زعماء مصر ووزراءها ورجال احزابها ..

لم اسع اليهم .. ولكنهم سعوا الى .. ولم اعد شخصية محلية يقتصر نفوذها على بورسعيد وحدها ، بل اصبحت شخصية عامة تملأ مصر كلها ..

وقد حدث كل هذا بسرعة .. بسرعة غريبة .. ثلاث او اربع سنوات .. واقتربت من المليون الاول ..

وانتقلت انا وزوجتى الى القاهرة . واستأجرت قصرا فى الزمالك . لأكون بجانب دار المندوب ..

وليس معنى ذلك انى اصبحت انجليزيا ..

لا ..

انا لا استطيع ان اكون انجليزيا .. وانا لا استطيع ان اكون مصريا .. انا مصنع .. انا شركة .. انا عزبة .. انا صفقة .. انا مصلحة .. واينما كانت مصلحتى اكن !!

وكانت مصلحتى مع الانجليز .. بل ان الانجليز اصبحوا شركاء لى فى كثير من شركاتى .. وقد سافرت مع زوجتى الى انجلترا عدة مرات ، قدمتنى الى سادة رجال الاعمال .. السادة الانجليز .. واستطعت ان اعقد معهم عدة اتفاقات .. لقد وجدتهم محتاجين الى اسم مصرى يخفون خلفه رءوس اموالهم .. فمنحتهم اسمى .. هكذا ببساطة !

ولكنى لم اكن من الغباء بحيث اعادى الحـــركة الوطنية المصرية .. لا بالعكس .. لقد كنت اؤيدها فى الحدود التى لا تضر مصالحى .. واطمأن رجال الاحزاب الى .. على اختلاف

احزابهم .. اطمأنوا الى لانهم عرفوا انى لا اطمع فى ان اكون رئيسا للوزراء ، ولا وزيرا ، وانى لن اؤلف حزبا انافسهم به .. فبداوا يتقربون الى ، وكل منهم يستطيع ان يتخذ منى رسولا لدى الانجليز .. وكنت ارحب بأن أكون رسولا الجميع .. فهم عندما اتخذوا منى رسولا ، وضعوا اعناقهم فى يدى !!

وكل هذا وعبد العظيم يوزع الرشاوى على الموظفين .. كبارهم وصغارهم .. ويشترى لى رجال الأحزاب ، ويعينهم اعضاء فى مجالس شركاتى .. و .. و .. وبقية الأعمال القذرة التى حدثتك عنها .

وزوجتى ..

لقد بدات تفقد نفوذها .. اصبحت انا اكبر منها ، واكبر من أبيها .. اصبحت اكبر من الكولونيل ديفيز نفسه .. وعندما كبرت لم اعد فى حاجة لان اضغط على اعصابى حتى اشبع جوعها .. جوع الزوجة المسكينة التى صنعت لى كل هذا المجد ، وكل هذا الثراء ..

وبدات هى تنزوى .. صبرت على الجوع حتى لم تعد تجوع .. ومع الأيام لم تعد تربطها بى حاجة جسدها الى ، بل اصبح كل ما يربطها بى هو الثراء الذى احيطها به ..

انك لا تعلمين يا هدى كم تعذبت بهذه الزوجة .. لقد كنت اتعذب وانا احاول ارضاءها كى استغل نفوذها .. ثم اصبحت اتعذب لمجرد مرآها .. لم اكن اكرهها .. ولكنى كنت اكره نفسى كلما رايتها .. كنت ارى فيها بشاعة نفسى .. كنت ارى فيها قسوتى ، وجشعى .. وكنت أهرب منها .. نعم كنت اهرب منها .. كانت تنقضى ايام كثيرة دون ان اراها .. حتى لا ارى نفسى فيها ..

وكنت احيانا اتذكر اباك .. زميلى محمد افندى السيد .. واتساءل : ترى كيف يعيش هو وزوجته ؟ .. واى نوع من

النساء تزوج ؟ .. ثم كنت اتصوره فى بيت صغير هادىء ، وبجانبه زوجة حنون راضية .. فاحسده .. واحس بالشىء يتحرك فى صدرى ويكاد يكتم أنفاسى ، ويمزق رئتى ..

ورغم ذلك فانى لم افكر فى ان اطلق زوجتى . انى لازلت محتاجا اليها ، على الأقل أمام الناس ، وحتى لا اثير بطلاقها حديثا أنا فى غنى عنه ، واغضب أصدقائى الانجليز الذين لازلت فى حاجة اليهم .. لقد كانت بالنسبة الى كأنى احمل الجنسية الانجليزية ، بجانب جنسيتى المصرية ..

وكنت اهرب منها بالعمل .. ومزيدا من العمل .. ولكن العمل وحده لم يكن يكفينى .. ان الذين يعملون كثيرا ، يحتاجون الى نوع عنيف من اللهو حتى يريحوا رءوسهم من العمل ..

ان معظم رجال الاعمال يغرمون بالمقامرة مثلا .. لا بقصد الربح ، ولكن لأن المقامرة لهو عنيف مثير ينسيهم العبء الكبير الذى يحملونه فى رءوسهم .. وقد يخرج رجل الأعمال من مكتبه ليلعب الشطرنج ، او ليلعب « البريدج » .. والشطرنج والبريدج من الألعاب التى تحتاج لتفكير عنيف .. ورغم ذلك فرجال الاعمال يقبلون عليهما ، لانهم محتاجون الى هذا التفكير العنيف ، حتى ينشغلوا به عن عبء التفكير فى اعمالهم ..

وقد كنت اهوى المقامرة .. والنساء !!

ولم اخسر كثيرا فى المقامرة ..

ولكنى خسرت مع النساء .. خسرت مرة واحدة .. خسارة انتهت بى الى المحكمة .. والى الحكم على فى جريمة خلقية .. رغم انى كنت ايامها فى قمة سطوتى ونفوذى ..

هل تعلمين انى محكوم على بالسجن فى جريمة خلقية ؟

لا .. انك لا تعلمين ..

ان كل الناس تحترمنى .. وتهابنى .. وتفسح لى الطريق وترفعنى فوق الرءوس .. فكيف يكون هذا الانسان المبجل محكوما عليه بالسجن فى جريمة خلقية ؟ !

- ٣ -

انى استطيع ان ارى عينيك ملؤهما الاســـتطلاع .. انك تتعجلين قصة الجريمة التى ارتكبتها .. تريدين ان تعرفى ماذا فعل حسين شاكر حتى يقبض عليه البـــوليس ويقـــدمه الى المحكمة ؟.. انك لا تتصورين عمك حسين وراء القضبان .. ولعلك الآن تقفزين السطور قفزا لتصلى الى نهايتها .. لا .. ارجوك .. لا تقفزى السطور .. اقرئيها سطرا سطرا ، بامعان وتدقيق .. فان ما اكتبه ليس مجرد اعتراف ، انه ايضا دفاع .. والمجرم لا يعترف الا لأنه لا يجد دفاعا عن نفسه الا الاعتراف .. واذا كان اعترافى يحمل دفاعا ، فانى لا اطمع من وراء هذا الدفاع ان ابرىء نفسى .. فقط اطلب الرحمة .. رحمتك ، بعد ان يئست من رحمة الله !!

ولنتفق اولا ، على معنى الجريمة !

ان الجريمة هى : اعتداء .. هى : ايذاء الناس ..

اليس كذلك ؟ !

ولكنى عشت طول حياتى اعتدى على حقوق الناس ، واخرب بيوتهم ، واغتصب رزقهم .. ان كل ساعة فى عمرى جريمة .. ورغم ذلك فان القانون لم يلحقنى ابدا .. والمجتمع لم يصمنى بالجرم .. والله نفسه لم يعاقبنى .. انما كانت كل جريمة ارتكبها شهادة بذكائى اقدمها للمجتمع فأرتفع فى عينيه .. وكلما ازدادت

جرائمى ارتفعت اكثر .. حتى وضعنى المجتمع على راسه ، لأن احدا غيرى لم يستطع أن يرتكب ما ارتكبه من جرائم !!

مرة واحدة تحرك القانون ضدى ..

ومرة واحدة اشار المجتمع الى بأصبح الاتهام ..

وفى هذه المرة الواحدة لم اكن قد اعتديت على حق احد ، ولا آذيت احدا .

صدقينى ، ان الجريمة الوحيدة التى حوكمت من اجلها ، هى الجريمة الوحيدة التى لم ارتكبها .. بل انها ليست جريمة على الاطلاق !

وكان ذلك فى عام ١٩٣٥ .

وكانت لى عشيقة ..

انى اقولها ببساطة ، وبلا خجل .. كانت لى عشيقة .. وكل الرجال الكبار الذين كانوا يعيشون حولى كانت لهم عشيقات .. الملك له عشيقة ، ورئيس الوزراء له عشيقة ، وزعماء الأحزاب لكل منهم عشيقة .. و .. و .. ان نظام العشيقات نظام معترف به دون نص مكتوب ..

انه ظاهرة اقتصادية ، فالفقــراء يتزوجون مثنى وثلاث ورباع ، والاغنياء يتزوجون مرة واحدة ، ويعشقون مثنى وثلاث ورباع !!

لماذا ؟ !

لان تكاليف الزوجة اقل من تكاليف العشيقة .. الفقــير يستطيع ان ينفق على اربع زوجات ، ولكنه لا يستطيع ان ينفق على اربع عشيقات . ولا حتى على عشيقة واحدة .. اما الغنى فليس محتاجا لان يتزوج اكثر من واحدة ، لأنه يستطيع دائما ان يقتنى عشيقة ..

ونظام العشيقات ظاهرة اجتماعية ايضا .. فالمجتمع لا يطلب من الفقير ان يقدم له زوجته ، بل هو ـــ اى المجتمع ـــ لا يعرف

الفقير ولا زوجته . ولا يريد ان يراهما .. لا يريد ان يسمع اخبارهما . ولا ان يرى صورتهما فى المجلات .. ولكن المجتمع — نفس المجتمع — يلزم الرجل الغنى بأن يقدم له زوجته ، ويسعى دائما ليعرف اخبار هذه الزوجة .. ماذا تلبس ؟ . وماذا تأكل ؟ . وأين تقضى سهرات المساء ؟ . وحتى لا يرتبك المجتمع فى تتبع اخبار زوجات الأغنياء الكبار ، فهو يطلب من كل منهم الا يقدم اليه الا زوجة واحدة !!

ومعظم هؤلاء الأغنياء الكبار يرضون المجتمع فلا يتزوجون الا زوجة واحدة .. زوجة يقدمونها الى الناس . ويبدون معها فى الحفلات وأمام عدسات المصورين .. ولكل منهم عشيقة تنتظره الى ان تنتهى الحفلة ، والى ان ينتهى المصورون من التقاط الصورة !!

ورغم ذلك فانى لم اتخذ لنفسى عشيقة لمجرد ان اتخاذ عشيقة هو مظهر من مظاهر المجتمع الذى اعيش فيه ..

انما انا من هواة النساء ..

انها هواية كهواية جمع طوابع البريد .. وقد بدأتها معتمدا على ذكائى وحده ، ثم ارحت ذكائى واعتمدت فى هوايتى على ثرائى ..

وقد بدأت هوايتى هذه منذ كنت طالبا فى مدرسة الفنون والصنائع . وكنا نلتقى كل ليلة جمعة بعبد العظيم ، وكان ايامها لا يزال متشردا صغيرا يقدم نوعا معينا من الخدمات لاصدقائه ، وكان يصحبنا الى بيت من بيوت الساقطات ، ويتركنا ننتقى الأجساد الرخيصة ، وينتظرنا بجوار الباب ليحاسب صاحبة البيت . ويحاسبنا على « العمولة » ..

كانت كلها اجساد رخيصة فقيرة ، لا يتجاوز ثمن الجسد الواحد خمسة قروش . ورغم ذلك فقد كانت هوايتى ان اسرق هذه القروش الخمسة من المرأة المسكينة .. كنت اتحايل عليها ،

واسيطر على اعصابى حتى اثير جسدها المنهوك المظلوم .. فتتعلق بى ، وتتنازل عن اجرها راضية ، ثم تلاحقنى وتدفع لى من كسبها .. وانا ازهو بذكائى امام الطلبة .. كل الطلبة ما عدا اباك .. كان هو وحده الذى يجعلنى اخجل من ذكائى كلما لمحته ، او كلما تذكرته .. كان هو وحده الذى يفسد متعتى وانا ازهو بين اصدقاء الليل بهذا النوع من النساء الذى يلاحقنى ..

وتخرجت من المدرسة وبدات اعمل ، وبدات اضم الى مجموعتى صنفا ارقى من النساء ..

نساء خدعتهن باسم الزواج .. ونساء خدعتهن باسم الحب .. ونساء سعيت اليهن ، لانى كنت فى حاجة اليهن لتيسير صفقة من صفقاتى .. ونساء اشتريتهن .. ونساء استغللت حرمانهن .. ونساء اعتقدن انهن خدعننى !!

عشرات النساء .. لم يكن لواحدة منهن فى حياتى اكثر من الساعة التى اقضيها معها .. ولم تستطع واحدة منهن أن تستولى على قلبى .. لم يكن لى قلب لتستولى عليه امراة .. ولم تستطع واحدة منهن ان تلهينى عن عملى .. ان النساء كن بالنسبة لى ، هواية اوقات الفراغ .. كنت دائما استطيع ان ازيحهن من امام عينى ، وامسحهن من صفحة ذهنى ، وانا مقبل على عملى .. بل انى قضيت شهورا طويلة دون ان التقى بامراة ، او افكر فى امراة ، لان عملى كان يقتضينى كل دقائق عمرى خلال هذه الشهور ..

وانتقلت الى القاهرة .. وكبرت .. واشتهرت .. واصبحت نجما من نجوم المجتمع .. وانتقيت بصنف اكثر رقيا من النساء ..

اكثر رقيا !! لعل هذا التعبير فيه كثير من المبالغة .. لا .. نهن لسن اكثر رقيا .. انهن فقط اكثر لمعانا .. والصفيح يلمع حيانا اكثر من الذهب عندما تسلط عليه الاضواء !!

واسالى عبد العظيم .. بك !

لقد أصبحت مهمته أسهل بكثير مما كانت عليه ؛ عندما كان يعيش معى فى أوساط الطبقة الفقيرة والمتوسطة .. كان أيامها يضطر الأن يخدع ، ويجهد ذكاءه ، ويغرى ، ويهدد .. حتى يصل بالمرأة الى بابى .. أما بعد أن انتقلنا الى الأوساط الراقية ، فلم تعد مهمته تتعدى فتح الباب !!

وكنت أنا نفسى أدهش ، عندما أجد امرأة ذات اسم كبير .. وجمال كبير .. تلقى بنفسها على .. هكذا بسهولة ، ودون أن أسعى وراءها ..

ثم اكتشفت أن هناك نساء — مثلى — من هواة جمع الرجال .. انهن يردننى باعتبارى نجما لامعا يصلح ليضاف الى المجموعة التى يحتفظن بها فى ادراج ذكرياتهن ..

واكتشفت أن هناك صنفا ثانيا منهن .. يحمل اسما كبيرا أيضا .. أسماء عائلات ضخمة .. ويعشن فى بذخ يبلغ حد الجنون .. ولكنهن لا يملكن من أسباب هذا البذخ ، الا اجسادهن .. والنسبة محفوظة .. فقد تكون هناك امرأة تملك خمسة قروش وتضطر أن تبيع جسدها لتحصل على عشرة قروش أخرى تدفعها ايجارا للغرفة التى تقيم فيها .. وهناك نساء تملك الواحدة منهن مائة فدان ولكنها فى حاجة الى ايراد الف فدان حتى تحتفظ بحياة البذخ الذى تعيش فيه .. فتضطر ايضا أن تبيع جسدها .

ثم هناك صنف ثالث من النساء .. النساء اللائى يعتقدن أن ازواجهن لا يستطيعون أن يعتمدوا على انفسهم ، وانهم فى حاجة الى مساعدتهن ليرتقوا فى مناصبهم .. فيتقدمن ، بلا سبب ، وبلا مقدمات . ليعرضن انفسهن على الرؤساء لقاء « درجة » أو « علاوة » تمنح للزوج الغافل .. وهذا الصنف من النساء يهبن اجسادهن بعد أن يقتنعن انفسهن بأنهن يقدمن على تضحية كبيرة فى سبيل الزوج المسكين ..

وقد خبرت هذا الصنف طويلا .. كانت الواحدة منهن تقبل وفى عينيها نظرة مسكينة كأنها شهيدة تقدم عنقها على مذبح المجتمع .. ثم كانت تحاول أن تبدو ذكية . فلا يخرج ذكاؤها الا فى سلسلة من كلمات النفاق ، والضحكات الرنانة الجوفاء .. ثم تقول بعد ان تقوم من فراشى ، وتقف امام المرآة لتصلح نفسها : « انا عايزاك تدى جوزى شغل كتير .. اشغله فى اى حاجة .. ولما ينشغل حافضالك أنا » .. ان هذا المعنى تقوله كل منهن ، فى تعابير مختلفة .. ودائما يقلنه بعد ان يتركن فراشى ويقفن امام المرآة ليصلحن من انفسهن !!

ولم تستطع واحدة من هذا الصنف ان تأخذ منى ترقية لزوجها لا يستحقها .. انهن لا يعلمن انهن يعشن دائما خارج دائرة عملى .. وانا نفسى اخرج من دائرة عملى عندما التقى بهن .. وقد كان من بينهن زوجات لموظفين اكفاء فى شركاتى .. وكان مقدرا لهؤلاء الازواج ان يرتقوا فى مناصبهم دون مساعدة زوجاتهم .. ولكن ، ما دامت زوجاتهم تصر على مساعدتهم .. فليس لدى مانع !!

هكذا كنت اعيش ..

عشرات النساء ..

ولا تسالينى اين كانت زوجتى .. ان المسكينة منزوية بعد ان صبرت على جوع جسدها حتى لم تعد تجوع .. ولم تحاول مرة أن تحاسبنى .. لم تحاول ابدا ان تتجسس على لتعرف أين اقضى أوقات فراغى .. وربما كانت تعلم .. فانى لم انقطع عن هواية النساء منذ أن تزوجتها .. بل ان زواجى بها أطلق هذه الهواية فى نفسى .. فاندفعت فيها اشد جموحا .. كنت أحس كأنى انتقم من كل النساء الجميلات اللائى لم اتزوجهن .. كنت اعوض النقص الذى احس به وانا زوج لامراة قبيحة .. كنت اعرف ان بقية الأزواج .. بقية الرجال .. ينظرون الى زوجتى

.. الى كوم اللحم الذى غاصت فيه ملامح الوجه فلم تعد تبدو منها عينان ولا انف ولا شفتان ؟ والى الساقين اشبه بعمودى تليفون ، والى الذراعين الحمراوين كانهما فخذا خنزير مسلوق .. ينظرون الى هذا الشيء الذى تزوجته فيسخرون منى فى دخيلة نفوسهم .. وقد يشفقون على .. فكنت أنتقم من سخريتهم ، ومن شفقتهم .. كنت أنتقم منهم فى اجساد زوجاتهم .. كنت عندما امتلك واحدة من هاتيك الزوجات فى فراشى ، احس احساس خبيث .. احس كأنى امتلكت زوجها ، وانتقم منه بغل وعنف .. لأنه سخر من زوجتى .. ولأنه تزوج امراة اجمل من زوجتى !!

الى أن كان يوم ..

وكنت مدعوا فى حفـــلة خـــيرية ســـاهرة اقيمت فى فندق سان استفانو بالاسكندرية .. وذهبت ومعى عبد العظيم بك .. انه دائما معى !!

وهناك رأيتها ..

لمحتها من بعيد .. وكانت عيناها مسلطتين على !

وحاولت ان اتجاهل عينيها .. ولكنى لم استطع .. وعدت اواجههما من جديد !!

انهما عينان غريبتان .. واسعتان حتى تسعان كل الناس فى النظرة الواحدة .. وفى طرفهما غمزة خفيفة كأنهما تشيران الى اشارة خفية .. واهدابهما طويلة ، كأنها صنعت من هذه الأهداب وسادة من الحرير تنام فوقها نظرتها .. وكتفاها .. انى لم أر بعد عينيها الا كتفيها .. كتفان عاريتان فى لون اللبن الممزوج بشراب الورد .. وخيل الى انى اتحسس كتفيها بعينى .. وانى اشعر بنعومتهما .. بالبشرة الملساء المشدودة كأنها صنعت من عجين الياسمين .. وانتبهت الى يدى وهى تمسح على حافة المائدة كأنى فعلا اتحسس كتفيها !!

وملت على اذن عبد العظيم وسألته :

ــ مين الست اللى هناك دى .. انا فاكر شفتها قبل كده ؟!
ولم اكن قد رايتها من قبل ، ولكنه نوع من النفاق تعودت ان اخاطب به عبد العظيم ..
وقال دون أن يرفع عينيه ليبحث عن المرأة التى أعنيها :
ــ دى مرات ايزاك السمسار !
وقلت بعد فترة :
ــ انا سمعت ان ايزاك سمسار كويس !
ولم يجب عبد العظيم .. انما نظر الى من خلال عينيه المنتفختين ، ثم ارخى جفنيه اللذين تساقطت رموشهما ، وابتلع بقية كأس الويسكى ، ثم قام من جانبى ..
وبعد قليل رايته واقفا مع ايزاك السمسار .. رجل قصير ، أصلع الرأس ، باهت الشخصية .. اشبه بآلة عد النقود التى توضع فى المحال التجارية !!
وجاء عبد العظيم ومعه ايزاك .. ولم أقم له واقفا .. انى اعرف كيف اعامل هذا الصنف من الناس .. وتركته ينحنى امامى حتى كاد يقبل يدى ، وبين شفتيه ابتسامة كبيرة سائلة ، وفى عينيه نظرة مبهورة كأنه ينظر الى جبل من سبائك الذهب .. ولم ادعه للجلوس ، انما ابقيته واقفا امامى .. واخذت احدثه عن احوال البورصة ، واسعار القطن والأوراق المالية .. وهو يجيبنى فى ادب سمج ، بينما يتلفت حوله بين كل كلمة واخرى كأنه يبحث عن شىء ..
وكان يبحث عن زوجته ، لتعينه فى هذه الفرصة الذهبية التى سنحت له .. فرصة تشرفه بمعرفتى ..
وامهلته مدة اطول حتى يجد زوجته .. كنت اكثر من الأسئلة ، وهو يطيل فى كل جواب !
واخيرا جاءت ..
جاءت تتهادى فى مشيتها كأنها ملكة .. كأنها تمن على الأرض

بخطواتها .. انها طويلة .. اطول من زوجها بكثير ، واطول منى بقليل .. وقوامها ملفوف ليس فيه قطعة زائدة ولا قطعة ناقصة .. وشفتاها .. انهما الشفتان اللتان اضعف امامهما .. لانى اغرق نفسى فيهما .. احس وانا اقبلهما انهما تمتصانى كلى .. شفتان مليئتان ، كأنى آكلهما وانا اقبلهما ..

وقمت واقفا .. احتراما للعينين ، والكتفين ، والقوام الملفوف ، والشفتين الشهيتين ..

ولكنها لم تلتفت الى ..

لم تنظر الى ..

وكان يكفى هذا لأعرف اسلوبها .. اسلوبها مع الرجال ..

وخبطت على كتف زوجها بطرف مروحتها ، وقالت له بفرنسية رقيقة ، وفى صوت مبحوح يدغدغ الاعصاب :

ـــ هل تتكلم ثانية فى العمل ؟

وقال زوجها وهو يشير الى كأنه يقدم لها هدية عيد الميلاد :

ـــ حسين باشا شاكر .. انك تعرفينه بلا شك ؟ !

والتفتت الى ، وفى عينيها نظرة تسعنى كلى ، وقالت بلا مبالاة كأنها لا تعرفنى :

ـــ تشرفنا .. يا باشا !!

ومدت الى يدها ، وهى ترفعها الى شفتى ..

وانحنيت اقبل اليد الطرية ، وانا ابتسم ابتسامة خبأتها فى صدرى ..

وقالت بفرنسيتها التى تدغدغ الأعصاب :

ـــ آسفة .. باشا .. هل قطعت عليكما الحديث ؟

قلت وانا احاول ان اضع ذكائى فى عينى ، حتى تعرف انى افهمها جيدا :

ـــ ابدا .. تفضلى !

وسحبت لها مقعدا بجانبى .. وجلس ايزاك ، وعبد العظيم ..

وهكذا عرف ايزاك انه لن يجلس ابدا على مائدتى الا اذا كان مع زوجته !

ولم تمض دقائق حتى كانت الزوجة الجميلة تملك المائدة كلها ..

لم تكن تخصنى بحديثها ، كما هى عادة كل النساء اللاتى يجلسن بجانبى .. بل ربما خص عبد العظيم من حديثها اكثر مما خصنى ..

ورغم ذلك فلم اغضب .. ولم أحس بشىء ينقصنى .. كان حديثها لذيذا حتى عندما توجهه الى غيرى .. حتى عندما توجهه الى عبد العظيم !

انها ذكية هذه المرأة ..

ولكن .. هل هى اذكى منى ؟

ولم استطع ليلتها ان اقدر مدى ذكائها .. ولكنها تركتنى وانا اشك فى مدى ذكائى .. وتركتنى وانا احس انى مقبل على معركة .. معركة ذكاء .. وهو شعور لذيذ بالنسبة لى .. كنت ايامها قد وصلت الى مرحلة التأفف من المرأة السهلة .. المرأة التى لا تثير ذكائى .. وهذه المرأة ليست سهلة ..

وكان يجب ان اربطها بى قبل ان تنتهى السهرة .. او على الأصح اربط زوجها بى .. فالتفت اليه قائلا بالفرنسية :

ــ تستطيع غدا ان تبيع لى خمسمائة سهم من اسهم الشركة الكيمائية !

والتمعت عينا ايزاك فرحا .. لقد اصبح سمسارا لى .. انها ثروة هبطت عليه .. وهى ثروة لا تكلفنى شيئا .. فقد كنت انوى ان ابيع هذه الخمسمائة سهم عن طريق سمسار آخر ، سمسار ليست له زوجة بهذا الجمال !

واخرج ايزاك نوتة صغيرة من جيبه ليسجل امر البيع ؛ والتفتت الى كوليت — وهذا هو اسمها — وقالت فى لهجة ساخرة :

— كيف صنعت ملايينك ؟!

وفوجئت بالسؤال وقلت :

— ماذا تقصدين ؟ !

قالت وهى تدير راسها عنى :

— لا شىء !

قلت ملحا :

— لا بد انك تقصدين شيئا ؟

قالت وهى تعود براسها الى وتنظر الى بكل عينيها :

— مهما كانت الطريقة التى صنعت بها ملايينك ، فلا شك انك ستفقدها قريبا !

قلت وقد ازعجنى الحديث الى حد التشاؤم .. احسست كأن انسانا يدعو على بالافلاس :

— لا افهم .. ماذا تعنين ؟ !

قالت وهى تتنهد كأنها تخاطب طفلا لا يفهم فى حديث الكبار :

— ان احدا لا يبيع اسهم الشركة الكيمائية غدا ، ولكنه يشترى .. يشترى قدر ما يستطيع .. ثم يبيع بعد اسبوع !

ونظرت اليها صامتا ..

لم اعد ارى جمالها ، ولكنى كنت فى هذه اللحظة ارى اموالى .. ارى عملى .. كأنى انتقلت فجأة الى مكتبى .. وارى ذهنى يدور بسرعة كأنما سرى فيه تيار كهربائى .. ثم التفت اليها ، ونظرت فى عينيها نظرات ثابتة ، قابلتها بنظرات اثبت ، وفوق شفتيها ابتسامة صغيرة كأنها تشفق على ..

واتخذت قرارا ، والتفت الى ايزاك قائلا :

ـ مسيو ايزاك .. اشـتر لى الف سـهم من الشركة الكيمائية !!

واتسعت ابتسامتها ، وربتت على يدى ، وقالت كأنها تدللنى :

ـ انك طفل مطيع !

ونظر ايزاك اليها والى كأنه لا يفهم شيئا ، وشطب « الأمر » الذى كتبه فى مفكرته ، وكتب « الأمر » الجديد .. وعبد العظيم يحاول عبثا ان يخفى ابتسامة الشماتة فى !

واحسست انا بالارتباك ..

احسست كأن شخصيتى قد اهتزت .. كأن كل امجادى السابقة لم تعد تساوى شيئا ..

وقامت واقفة .. كالملكة .. كأنها تأمرنا بالانصراف ..

وقال عبد العظيم بفرنسيته الركيكة .. وهو يصافحها :

ـ لقد اتفقت مع مسيو ايزاك على أن نتناول العشـاء معا غدا ..

قالت :

ـ غدا .. اتفقنا .. ولكنى سأضطر ان انصرف مبكرة .. انى مدعوة الى سهرة !!

ورفعت يدها الى شفتى عبد العظيم ليقبلها ..

ثم قدمت لى يدها ..

وتقززت من ان اضع شفتى مكان شفتى عبد العظيم .. ولكنى وضعتهما .. قبلت اليد التى قدمتها الى ..

وتركتنا ، وايزاك يسير وراءها ، كأنه ذيل ثوبها

وجلست انا وعبد العظيم .. ونظرت اليه كأنى آمره ان يتكلم .. ان يقول كل ما عنده ..

وتكلم دون أن يرفع عينيه لى .. قال كأنه يقـدم تقريرا رسميا :

— عبد العزيز باشا مبارك بيحبها .. ومش طايل منها حاجة .. وخاربه بيته .. وبتلعب فى البورصة !!

وابتسمت وانا اسمع اسم عبد العزيز باشا مبارك .. انه احد كبار رجال الاعمال فى الاسكندرية .. وكانت بينى وبينه دائما منافسة .. منافسة استعملنا فيها كل الأسلحة القذرة .. وقد انتصرت عليه فى عدة صفقات لأنى دائما اقذر منه .. هل استطيع ان انتصر عليه فى هذه الصفقة ايضا .. صفقة كوليت ؟!



وجاءت كوليت فى الليلة التالية .. دائما جميلة !

وكان المفروض ان يتولى عبد العظيم مهمة الحديث مع ايزاك ، لاتفرغ انا للحديث مع كوليت .. كان هذا هو النظام المتبع فى مثل هذه المناسبات ، والذى يعرفه عبد العظيم جيدا .. ولكن كوليت خرجت على هذا النظام .. تولت هى الحديث كله .. وكانت تعطى منه لعبد العظيم اكثر مما تعطينى .. كأنها تحاول محاولة لم تقدم عليها امراة اخرى .. كأنها كانت تحاول ان توقع بينى وبين عبد العظيم .. ان تجعلنى اغار منه !

وصبرت ..

قررت ان اصبر طويلا ..

لا شيء يغلب هذا النوع من النساء سوى الصبر ..

وتغلبت روح العبد الذليل فى عبد العظيم ، فكان يرد حديثها الى .. كانت تسأله عن نفسه فيحدثها عنى .. كانت تمتدحه فيرد مديحها الى .. كانت تلاطفه فيحول ملاطفتها على ..

وعرفت كوليت انها لا يمكن ان تستعمل عبد العظيم ضدى ..

وانا صابر ..

لا اقبل عليها ، ولا افر منها .. ولا اكلف زوجها بأمر جديد يربح من ورائه شيئا ..

ودعتنا فى اليوم التالى الى بيتها .. بيت أنيق فخم . أكبر وأفخم من بيت مجرد سمسار فى البورصة .. ونسيت أن أقول لك ان كوليت لم تكن ايضا مجرد زوجة سمسار .. انها من عائلة كبيرة معروفة فى الاسكندرية .. والثراء ليس جديدا عليها . ولكنه بالنسبة لها هواية .. هواية جمع المال ..

ولم تكن الدعوة لنا وحدنا .. لقد وجدنا هناك آخرين .. كلهم من كبار رجال الأعمال .. ونساء جميلات . وعبد العزيز باشا مبارك ..

واستقبلنى عبد العزيز باشا بابتسامة صفراء ينضح منها السم .. ونظرت اليه وانا اضحك ضحكة كبيرة .. نظرت الى عينيه الغائرتين وسط أمواج من التجعدات . كأنهما قطعتان صغيرتان من الحجر القيتهما فى مستنقع من الماء الملوث .. والى لغده الذى يتدلى تحت ذقنه . طية فوق طية .. وكرشه الضخم . هو الآخر . طية فوق طية .. والى طربوشه الأحمر الفاقع . وزهرة القرنفل الحمراء التى يضعها فوق صدره وتميل على كتفه كأنها تبتعد عن انفاسه .. انه اشبه شىء بالديك الرومى .. واخلاقه اخلاق الديك الرومى .. انه ينتفض غاضبا لأى بادرة .. وهو جاد دائما .. جاد فى مكتبه .. وجاد فى ميدان السباق .. وجاد وهو يشرب الويسكى فى سهراته .. جاد وعنيد ووقح .. وربما كان هذا هو سبب هزيمته كلما وقف امامى فى منافسة حول صفقة .. فرجل الأعمال يحتاج الى كثير من المرونة ، وكثير من الابتسامات ، وكثير من التواضع ..

وهذا الديك الرومى . هو الذى ينافسنى فى كوليت الآن !

وضحكت مرة ثانية .. ضحكة كبيرة .. وادعيت انى اضحك امكنة القاها عبد العظيم ..

ورحبت بى كوليت .. ثم حاولت ان تتجاهلنى .. وحاولت أيضا أن تثير منافسة بينى وبين الديك الرومى ..

وصبرت على كل ذلك ..

صبرت وعيناى تتبعان كتفيها العاريتين المصنوعتين من عجين الياسمين .. وتتبعان القوام الملفوف .. والغمزة الخفيفة فى طرف العينين الواسعتين كأنهما تشيران اشارة خفية الى كل الناس ..

ثم غادرت الحفل ..

وكان قبولى الدعوة الى بيت ايزاك ، حدثا اجتماعيا ، رفع من مركز ايزاك فى البورصة ، واحاطه باهتمام كل رجال الأعمال .. فاكتفيت بهذا الفضل عليه ، ولم اعرض عليه جديدا ..

وفى اليوم التالى عدت الى القاهرة .. وقبل ان اعود ارسلت الى كوليت علبة شيكولاته ، شكرا على دعوتها .. وقد تعمدت أن تكون علبة شيكولاته ، لا سوار من الماس .. ولا خاتم سولتير .. كما جرت العادة بيننا نحن رجال الأعمال ، عندما نحاول أن نبدى اعجابنا بسيدة ..

ولم استطع أن انسى كوليت فى القاهرة ..

كنت افكر فيها دائما .. لا بقلبى .. ليس لى قلب يفكر .. بل كنت افكر فيها كصفقة جميلة يجب ان افوز بها .. كمناقصة معروضة فى سوق المقاولات ، قررت ان اتقدم اليها منافسا لبقية المقاولين .. كنت اراها كما كنت أرى عمارة فخمة اريد شراءها ، واحاول ان اشتريها بأبخس ثمن ..

ولكنها كانت اكثر من ذلك .. كانت المرأة الوحيدة التى جعلتنى افكر فيها وانا فى مكتبى .. وانا اعمل .. كانت نصيحتها لى الخاصة بأسهم الشركة الكيمائية قد هزت ثقتى بنفسى .. وكنت اتمنى أن اخسر من وراء هذه النصيحة ، حتى استرد ثقتى بنفسى .. حتى اتخلص من صورة هذه المرأة التى تطل على كلما هممت ان اتخذ قرارا ، وبين شفتيها ابتسامة ساخرة ، كأنها تهزأ منى ..

ولكنى لم اخسر بنصيحتها ..
لقد ربحت .. ربحت مبلغا طائلا ..
ورغم ذلك لم افرح .. انما احسست انى لن استطيع ان اعيش ولا ان اعمل الا اذا استوليت على هذه المرأة ..
ولم اشكرها على نصيحتها ، حتى لا افتح بابا لاطماعها ، واشعرها بفضلها على ..
انما صبرت .. وصبرت اكثر .. ان الفرق بين الهزيمة والنصر ، دقيقة واحدة من الصبر !!
وكنت خلال هذه الأيام قد أمرت عبد العظيم بأن يكلف ايزاك ببعض عمليات البورصة الصغيرة ، حتى ابقى على صلته بى ..
ثم ذهبنا الى الاسكندرية .. انا وعبد العظيم !
وقابلتها مرة ثانية .. وقالت وهى ترفع يدها الى شفتى :
— وحشتنا .. باشا .. اين كنت ؟
قلت وانا احاول ان احتفظ باعصابى حتى لا تذوب فى نار جسدها الملفوف :
— انها الأشغال !
قالت وفى صوتها المبحوح المثير نغمة خاصة كانها تذكرنى بشىء نسيته :
— بالمناسبة .. مبروك على صفقة الشركة الكيمائية !
قلت :
— مرسى .. الفضل لك !
ولم ازد . لم اعرض عليها نصيبها فى الصفقة كما جرى بذلك العرف بين رجال الأعمال . كنت اريد ان اشعرها بأنها لن تأخذ منى شيئا الا لقاء الثمن الذى اريده .. الثمن الذى احدده انا .. البضاعة التى اختارها !
وتعمدت بعد ذلك ان احول مجرى الحديث .. وحاولت ايضا ان اسيطر على الحديث ، حتى لا تسيطر عليه هى ..

وتعمدت أن يكون حديثى كله فى الاعمال .. فى البورصة .. والشركات وتقلبات السوق ..

واطلت اقامتى فى الاسكندرية ..

وكلفت ايزاك بمزيد من الأعمال ..

وكنت معها كل مساء ..

وبدات المعركة تتضح بينى وبينها .. معركة الصبر .. من منا يصبر على الآخر اكثر .. وكان كل ما احرص عليه خلال المعركة ان اجعلها دائما أمامى .. وكان سلاحى دائما هو زوجها .. كنت اطلق له حبالا طويلة من الأمل .. حبالا من اطماعه .. وكان عندما يأتى الى وحده ، او عندما تنقضى ليلة لا ارى فيها زوجته ، اشل حركته .. واحرمه من اعمالى .. وارفض ان اجلسه الى مائدتى ، واقطع حبال اطماعه . فيعود الى معها .. وكان كل ما تحرص عليه هى ، الا تفيدنى بآرائها فى تقلبات البورصة بعد أن حرمتها من نصيبها فى صفقة الشركة الكيمائية .. لم تعد تحدثنى فى العمل .. بل لم تعد تطيق حديث الاعمال .. ثم بدأت تنهار .. بدأت تظهر ضيقها من حديثى الذى لا ينقطع عن العمل ..

وذات مساء التفتت الى فجأة ، وقالت غاضـــبة فى همس مبحوح :

— الا تكف عن حديث العمل !!

وابتسمت ابتسامة خفيفة ، وساءلت نفسى بسرعة : « هل حانت اللحظة ؟ » ثم قلت وانا اميل على اذنها ، وقد وضعت فى عينى نظرة ذات معنى :

— انهُ الحديث الوحيد الذى يصلح وحولنا كل هؤلاء الناس !

قالت وهى تنظر الى كأنها تحاول ان تتخذ قرارا :

— ومتى تستطيع ان تجد حديثا آخر ..

قلت وانا احس كأنى مقبل على توقيع عقد شراء :

ــ عندما تقبلين دعوتى !

ونظرت الى طويلا ، وبين شفتيها المليئتين ابتسامة ساخرة ، ثم قالت :

ــ اين ؟ !

قلت وانا استعين بكل جراتى فى عقد الصفقات :

ــ ان لى عشا هادئا .. هنا فى الاسكندرية !!

واشاحت بوجهها عنى .. واخذت تنقر بأصابعها على المائدة نقرات عصبية كأنها تعد ضربات قلبها .. ثم عادت والتفتت الى ، وقالت فى حدة :

ــ اتفقنا .. غدا الساعة السابعة !!

واحسست كأنى ملكت الدنيا كلها .. اشتريت الدنيا .. وعدت التفت الى ايزاك وعبد العظيم ، واحدثهما فى تقلبات البورصة ، كأنى أؤكد لها انها لن تجد منى حديثا آخر الا فى عشى الهادىء .. وفى نفس الوقت تسللت يدى الى جيبى واخرجت قلمى وكتبت عنوان العش على قائمة الطعام ، ثم وضعته امام عينيها ، دون ان يشعر احد ..

وجاءت ..

جاءت بعد صبر طويل دام ثلاثة اشهر ونصف ..

وعشى الهادىء ، هو قطعة من الجنة .. انفقت فى اعداده آلاف الجنيهات .. ولم يكن مجرد مكان لمزاجى الخاص .. بل كان ايضا مكان عملى .. ففى هذا العش سهر كثير من الوزراء والكبراء ، وتلقوا من يدى الرشاوى فى صورة خسائر اخسرها لهم على مائدة القمار ، وكانوا يعلمون انى اتعمد خسارتها .. وفى هذا العش تبذل كثير من الوزراء والكبراء بين احضان النساء ، وباعوا صفقات الحكومة لى وهم سكارى ..

كان لى مكتب وعش فى الاسكندرية ، ومكتب وعش فى القاهرة !!

ورغم ذلك فانى فى ذلك اليوم لم اشعر ان عشى الهادىء هو مكان عملى .. لقد احسست لأول مرة انه قطعة من الجنة .. ورأيت الصور الثمينة معلقة على الجدران كما لم ارها ابدا .. جميلة ، رائعة .. بل انى أحسست بالغيرة على عشى لأن غيرى من الرجال قد دنسوه بشهواتهم .. وتمنيت لو استطعت ان آخذ كوليت الى مكان آخر .. مكان لم يدخله غيرى من الرجال !!

وجلست فى انتظارها وقلبى واجف ، كأننى انتظر صدور نشرة البورصة لأعلم مدى خسارتى وربحى ..

وجاءت ..

جاءت فى السابعة تماما .. انها اذكى من ان تتعمد التأخير عن موعدها كما تفعل بقية النساء ..

واستقبلتها فرحا .. وانحنيت اقبل يدها .. وخلعت عنها معطفها .. وقدمت لها كأسا من الشمبانيا .. لم يكن معنا احد .. ولأول مرة لا يكون معى عبد العظيم .

وبدات احدثها عن صبرى الطويل ، وانا اضم يدها بين يدى ولكنها سحبت يدها ، وقالت وهى تبدو كأنها غاضبة ، وبين شفتيها ابتسامة تمسح عنها الغضب :

— لقد جاء دورى لأتحدث فى الأعمال .. اين نصيبى من صفقة الشركة الكيمائية ؟

وضحكت ضحكة كبيرة ، وربت على فخذها .. ومددت يدى واخرجت شيكا باسمها قيمته الف جنيه ..

كنت انوى فى هذا اليوم ان اعطيها نصيبها ، وكنت قد اعددت الشيك مقدما ..

واخذت الشيك بين يديها ، ونظرت فيه بامعان وهى تبتسم ساخرة .. وفجاة شدته بين اصابعها واخذت تمزقه قطعا صغيرة كأنها تقرضه بأسنانها ..

وصرخت دهشا :

ـــ ماذا تفعلين ؟

قالت دون ان تثور :

ـــ انك سافل !

قلت كأنى ادافع عن نفسى ؟

ـــ لقد كنت انوى ان اعطيك نصيبك ، ولكن .. و ..

قاطعتنى بصوتها المبحوح الذى يدغدغ اعصابى ، وفى لهجة حنان كأنها تغازلنى :

ـــ لنتفق اولا على انك سافل .. انك لا تستطيع ان تنكر انك سافل !

قلت وانا احاول ان اضحك :

ـــ لنفرض انى سافل .. ولكن هذا الشيك من حقك !

قالت وهى تبتسم :

ـــ انه هدية منى اليك .. هدية تستحقها على سفالتك !

قلت ضاحكا :

ـــ انك تغرينى بالسفالة ؟

قالت وهى ترفع كأسها الى شفتيها :

ـــ لا اظن .. انك لا تستطيع ان تكون اسفل مما انت !!

وضحكت .. وملت على يدها اقبلها مرة ثانية !!

واخذنا فى الحديث .. ولم اكن اريد شيئا فى لقائنا الأول سوى الحديث .. وقامت كأنها تهم بالانصراف .. وقمت معها .. وخطونا نحو الباب .. وامسكت لها معطفها ، وهممت ان اضعه فوق كتفيها .. ولكنها استدارت .. ونظرت الى بعينيها اللتين تسعانى كلى ، ولمحت الغمزة الخفيفة فى طرف العينين وقد ازدادت ارتعاشا .. وقالت وصدرها يكاد يقفز فوق صدرى :

ـــ لا تحاول ان تكون ماكرا .. انى اعرف ما تريد .. فلماذا لا تحاول ان تطلبه ..

وتسمرت فى مكانى دهشا ..

ان هذه المراة اقوى منى .. انها لا تريد ان اخدعها .. لا تريد ان اتمتع بخداعها .. وسـمعتها تقول وقد ازدادت التصاقا بى :

— ان الانتظار حتى اللقاء الثانى خدعة قديمة .. حاول ان تكون رجلا مودرن ! ..

وامسكتها من كتفيها ..

وأغرقت نفسى فى شفتيها ..

وسقط معطفها على الارض ..

ثم سقط الثوب عن الجسد الملفوف !

***

وعشت مع كوليت اجمل سنوات عمرى ..

وصدقينى اننى كنت اول رجل تخون زوجها معه .. اول رجل استطاع ان يذيب ترفعها ، وان يحطم مبادئها .. وكان من مبادئها الا تتخذ لنفسها عشيقا حتى لا تغضب بقية الرجال وتخسر التفافهم حولها واطماعهم فيها .. ولكنها وجدت فى كل الرجال !!

ولم يكن بيننا حب .. ليس هذا الحب الذى يتكلم عنه الناس .. ولكن كان بيننا تفاهم .. تفاهم تام بين اثنين لا يستطيع احدهما ان يخدع الآخر .. حتى جسدانا تفاهما ، لم اكن اشعر معها بأنى اتعمد ان اضغط على اعصابى لارضيها ، ولم تشعر معى انها تعطينى شيئا لا تريده ..

ونظمنا علاقتنا المالية .. اصبح لها النصف فى كل صفقة تشير بها .. وكنا دائما نربح سويا .. وكنت اعطيها مرتبا شهريا يغنيها عن تعمد ارضاء زبائن زوجها ، ويغنيها عن مضايقات عبد العزيز باشا مبارك .. وكنت اعطى زوجها اعمالا تغنيه عن ان يكون له زبائن غيرى ..

واشتهرت علاقتنا فى كل المجتمعات .. عرفها رجال الاعمال ، ورجال السياسة ، ورجال السلك الدبلوماسى ، والصحفيون ..

و .. و .. ولم نهتم .. انى لست الرجل الوحيد الذى يتخذ لنفسه عشيقة وليست هذه اول عشيقة لى ..

وجرفنا تيار التفاهم الذى نعيش فيه .. اصبحت اقضى ثلاثة ايام من الأسبوع فى القاهرة ، واربعة فى الاسكندرية .. معها .. وفى الأيام التى اقضيها فى القاهرة ، اتصل بها ثلاث او اربع مرات بالتليفون .. واحيانا لا اطيق فراقها ، فادعو زوجها فى عمل عاجل ، وادعوها معه !!

ونسينا كل شيء يمكن ان يحدث لنا .

نسينا الزوج ..

لا ، لم انس ايزاك ، ولكنى كنت اعامله كما تقضى تقاليد المجتمع الذى اعيش فيه .. المجتمع الذى يعترف بالزوج والعشيق !

ولم اكن اعرف ان هذا الفار .. هذا الزوج ، القصير ، الباهت الشخصية ، الذى يشبه آلة عد النقود التى توضع فى المحال التجارية .. يمكن ان يسبب لى اكبر هزة تعرضت لها فى حياتى .. يمكن ان يقدمنى الى المحكمة .. وان يذيب نفوذى الذى اسيطر به على مصر كلها ، فيحكم على القضاة بالسجن ..

— ٤ —

.. كنت التقى انا وكوليت فى الساعة السادسة عادة .. ويدوم لقاؤنا حتى التاسعة ، ثم تعود الى بيتها لتبدل ثيابها ، ثم تصحب زوجها ، ونلتقى ثانية على مائدة العشاء .. وأحيانا كنا نتناول طعام الغداء وحدنا ، عندما تجد عذرا كافيا تقنع به زوجها .. واحيانا كانت تأتى الى القاهرة وحدها ، فتقضى الليل كله معى .. انام وراسى فوق الكتف المصنوعة من عجين الياسمين !

وكانت حياتنا معا قد انتظمت واستمرت ، الى حد ان اصبحت حياة طبيعية .. لم يعد فيها ما نحترس منه او نخاف عليه .. كنت اذهب الى الاسكندرية فأقيم فى فندق « سيسيل » وفى الساعة الخامسة تماما اترك الفندق واذهب الى عشى الهادىء .. ومعى عبد العظيم .. واجلس هناك فى الشرفة المطلة على البحر .. وفى الساعة السادسة تماما يدق جرس الباب ، ويقوم عبد العظيم ليفتح .. وتدخل كوليت ، ولا اقوم لاستقبالها ، ولا التفت اليها .. انما اظل ارقب البحر الى ان اشعر بشفتيها فوق راسى .. تقبلنى فى اعلى جبهتى .. فأمسك بيدها واشدها الى — وانا لا زلت جالسا فى مقعدى — واقبلها فوق شفتيها .. ثم اترك يدها ، لتقف امامى مستندة الى حاجز الشرفة .. ونأخذ فى الحديث نحن الثلاثة .. وكان اغلب الحديث

دائما من نصيب كوليت .. ان عندها دائما كثيرا من آخر انباء رجال البورصة ، ورجال الاعمال .. وعندها دائما نكات لاذعة تطلقها عليهم .. وعندها كثير من الفضائح المثيرة التى تعيش فى مجتمعنا .. وهى تتحدث دائما كملكة .. فى حديثها ترفع يرفعك اليها ، ولا ينزل بها اليك .. وتتحدث عن الفضائح كأنها تتحدث عن رعاع لا تعيش بينهم .. وتطلق النكتة وبين شفتيها ابتسامة كأنها فنانة تعجب بفنها .. وكان من عادتها دائما أن تهتم خلال حديثها بعبد العظيم ، اكثر مما تهتم بى .. كأنها تعوضه عن حرمانه .. كأنها تمنحه وسام الشرف على خدماته الجليلة التى يؤديها لى .. ولها ! وكان عبد العظيم يحبها لذلك .. كانت المرأة الوحيدة فى حياتى التى احترمها عبد العظيم ، وحرص على ان يبقى علاقتها بى .. بل كان يخيل الى احيانا انه يغار عليها .. غيرة العبد لا غيرة السيد .. كان لا يطيق ان يسمع عنها كلمة تمسها ، وكنت أنا نفسى عندما اقول عنها كلمة لا تعجبه يقلب شفتيه وينظر الى بعينين ساخرتين ، كأنه يقول لى : « والله دى خسارة فيك » ..

وينتهى حديث الشرفة .. وتتركنا كوليت بلا تعمد ، وتدخل الى داخل البيت .. انه بيتها .. وفى حجرة النوم تحتفظ بكل ادوات التجميل الخاصة بها .. وعشرات من زجاجات العطور التى تفضلها .. ولها فى الحمام برنس خاص ، ومنشفة .. واملاح البنفسج التى تذيبها فى الماء قبل ان تستحم به . .وهى التى اشارت بتغيير ستائر غرفة النوم واثاثها .. فقد كانت تفضل اللون « الأوكر » .. وكانت ترفض أن يكون لها سرير نام عليه غيرها ..

شيء واحد حرصت كوليت على الا تحمله الى بيتنا .. الى عشنا الهادىء .. هو قميص النوم .. انى لم ارها ابدا بقميص النوم .. كانت دائما تواجهنى بثوبها الكامل .. ثوب الخروج ..

وتترك لى ان ابدا الطريق من اوله .. وكأنى فى كل مرة التقى بها لأول مرة .. وربما كان هذا هو الفرق بين الزوجة والعشيقة .. وهو فوق كبير !

واكثر من ذلك ..

لقد كنت اقيم سهرات صغيرة فى هذا العش .. كما كانت عادتى دائما .. سهرات ادعو اليها الوزراء ورجال الأعمال ليتلقوا الرشاوى فى صورة خسائر اخسرها لهم على مائدة القمار .. او الأسكرهم واسلط عليهم سحر نوع معين من النساء ، حتى ينطقوا بأسرارهم ، ويبيعوا لى كل ما اريد شراءه .. وكانت كوليت دائما معى .. وكانت تقوم بدور المضيفة .. دور ست البيت .. هى التى تستقبل المدعوين ، وهى التى تشرف على راحتهم ، وهى التى تقوم على تنفيذ الخطط التى نتفق عليها .. وكان زوجها ايزاك يحضر معها .. وكان يعلم .. كان يعلم تماما مركز زوجته منى ومن البيت .. انه ليس غبيا ، وليس ساذجا !

فهل هناك ما يمكن أن اخشاه بعد ذلك ..

هل هناك ما يمكن ان يثير ريبتى حتى احسب حسابا لهذا الزوج .. هذا الفأر الذى يشبه آلة عد النقود التى توضع فى المحال التجارية !

لا .. لقد كنت مطمئنا .. غاية الاطمئنان !

الى ان كان يوم ..

يوم لا انساه ابدا ..

جاءت كوليت فى الساعة السادسة ..

وانتهى حديث الشرفة ..

ودخلت كوليت الى حجرة النوم .. ولحقت بها بعد قليل .. وتركت عبد العظيم ينظر الى البحر ، وفى يده كاس من الويسكى المثلج .. ليس اكثر برودا من اعصابه !

وانقضت فترة .. فترة طويلة .. وافقت من نشوتى ، على صوت جرس الباب يرن ..

من هذا ؟

لعله البواب .. لعله احد السكرتيرين الخصوصيين الذين يعملون مع عبد العظيم ويعرفون سر هذا العش ، جاء فى مهمة عاجلة .. لعله ..

ولكن رنين الجرس يتوالى .. بعنف .. كأنه صراخ امراة تتباهى بصراخها .

وانتبهت اذناى ، وجسدى كله لا يزال مع كوليت ..

ثم سمعت خبطا بالأيدى فوق الباب ..

ثم سمعت صوت الباب يفتح ..

ثم ضجة ..

واتسعت عينا كوليت فزعا .. عيناها قريبتان جدا من عينى حتى خيل الى انى اغرق فى بحر من الفزع .. وقالت وشفتاها قريبتان جدا من شفتى .. حتى لم اكن ادرى ايهما تتكلمان ، شفتاها ام شفتاى .. قالت فى صوتها المبحوح وقد حشرجه الفزع :

ــ ما هذا ؟ !

وقبل ان اجيبها .. فوجئت بباب غرفة النوم يفتح فى عنف .. ورايت امامى اربعة رجال طوال ، وخلفهم ايزاك يشب على قدميه ، كأنه يحرص على الا تفوته مشاهدة استعراض مثير .. ثم خلف الجميع يقف عبد العظيم مذهولا ، فاغر الفم ، كأنه اصيب بصعقة ..

وكنا نحن الاثنين .. كوليت وانا .. عريانين !

وانتفضت من فوق السرير ، وانا احاول ان اغطى جسدى بذراعى ويدى .. وكلما غطيت ناحية منه ازددت خجلا من الناحية التى لم اغطها ..

وصرخت كوليت ، وجذبت ملاءة السرير حتى اعلى صدرها .. واخذت ترتعش فى عصبية كأنها اصيبت بالحمى .. ثم ركزت عينين مجنونتين فوق وجه زوجها ، وصرخت بالفرنسية :

ــ خنزير .. قذر !!

ثم اخذت تبكى فى نشيج حاد ..

واسرعت الى ثيابى ، ولكن ضابط البوليس كان اسرع اليها منى ، ووضع يده عليها وهو يقول فى ادب مفتعل ، وبين شفتيه ابتسامة ساخرة :

ــ آسف يا باشا .. مش ممكن تلبس دلوقت .. لازم نعمل اثبات حالة الأول !!

وجذبت ثيابى من تحت يده فى قوة وانا اصرخ فى وجهه محاولا أن استرد شخصيتى .. شخصية حسين باشا شاكر .. رجل الأعمال القوى .. صديق الانجليز الذى يحكم مصر :

ــ بلاش قلة ادب .. اثبت اللى انت عايزه .. ما حدش حيكدبك .. انما لازم البس هدومى !

وتركنى الضابط البس ثيابى ، وقد اتسعت ابتسامته الساخرة ، بينما بقية الرجال ــ بما فيهم عبد العظيم ــ يسقطون كل عيونهم فوق كوليت ، كأنهم يحاولون ان يمزقوا الملاءة بأعينهم ليروا ما تحتها ..

ونظرت الى ايزاك وانا اضم طرفى البنطلون الى وسطى ، وصرخت فيه :

ــ انت اتجننت يا راجل انت .. انت عارف انت بتعمل ايه ؟ !

ولم يلتفت ايزاك الى .. هرب من عينى .. واشار بأصبعه الى زوجته ، كأنه يراقب عجلة الروليت التى راهن عليها بكل امواله ، وقال بالعربية المكسرة ، وقد امتقع وجهه :

ــ آهو .. هى دى الست بتاعى !!

وعادت كوليت تكرر بين نشيجها :

ــ خنزير .. قذر !!

ودققت فى وجه ايزاك ، ثم تذكرت نجاة رئيس الوزراء ... نعم .. انه هو .. رئيس الوزراء .. وقلت لنفسى وانا اجز على اسنانى : « عملها ابن الكلب !! » .

والتفت الى ضابط البوليس ، وقلت وانا احاول ان احتفظ بلهجتى الآمرة :

ــ اتفضلوا نقعد فى الصالة ..

وحاول الضابط ان يعترض .. ولكنه عاد وراجع نفسه .. وقرر ان ينسحب من الغرفة هو رجاله .. وربما تذكر ساعتها ان رئيس الوزراء الحالى ، قد يسقط !!

وتجاهلت ايزاك .. وسبقت الجميع ، وجلست على الأريكة ، واخرجت سيجارا ضخما وضعته فى فمى واشعلته .. وجلس الضابط على مقعد مقابل .. ووقف الجنود الثلاثة .. جنود فى ثياب مدنية .. خلف الضابط .. وايزاك واقف بجانبه كأنه يحتمى به .. وحرص عبد العظيم على ان يغلق باب غرفة النوم ليترك لكوليت فرصة ارتداء ثيابها .. ثم جاء وجلس بجانبى ، وهو لا يزال مذهولا .. لقد كانت فى عبد العظيم نقطة ضعف واحدة .. وهى خوفه من البوليس .. منذ ان كان صغيرا يتاجر فى الحشيش ، ويصحبنا الى بيوت الساقطات ، وهو يخاف البوليس .. وكبر ، واغتنى ، واصبح مدير شركة ، و « بك » .. وهو لا يزال يخاف البوليس ..

وقلت لضابط البوليس ، وانا احاول ان اسيطر على اعصابى . وانفخ دخان السيجار الطويل فى الهواء ، كأنى اطرد آثار الهزة العنيفة التى اصابتنى :

ــ نعم ..

وقال الضابط :

— مسيو ايزاك معاه أمر من النيابة بضبط زوجته متلبسة بجريمة الزنا ..

قلت دون أن ارفع عينى الى ايزاك :

— وايه الاجراءات فى الحالة دى ؟

قال وقد بدأ يشعر بأنى .. باشا :

— سعادتك تتفضل معانا على القسم .

قلت مقاطعا :

— لا .. اذا كنت حاتكتب محضر اكتبه هنا !

قال :

— ده لازم النيابة تحقق ..

قلت فى حزم :

— برضه النيابة تيجى هنا !

وسكت الضابط قليلا ، وتردد ، ثم قال :

— تسمح أستعمل التليفون ؟ .

قلت وانا لا انظر اليه :

— اتفضل ..

وكنت اعرف ان الضابط سيتصل بالمأمور ، والمأمور سيتصل برئيس النيابة ، ورئيس النيابة سيتصل بالنائب العام ، والنائب العام سيتصل برئيس الوزراء .. ويأتى الأمر من هناك !

ولأول مرة تمنيت أن يرحمنى رئيس الوزراء من الذهاب الى القسم ..

انا الجبار .. صديق الانجليز .. انا الذى يشترى الوزراء ، ويسقط الحكومات .. كنت ساعتها لا اتمنى شيئا الا ان يعفينى رئيس الوزراء من الذهاب الى قسم البوليس ، ولو اضطررت ان استجديه واطلب رحمته ..

لم اكن اخاف التحقيق .. تحقيق النيابة .. او تحقيق البوليس بل ان التحقيق لم يكن مشكلة بالنسبة الى .. **انما** كان

كل ما اخافه هو الذهاب الى القسم .. كان يخيل الى انى سأفقد كل شيء اذا خطوت بقدمى الى داخل قسم البوليس .. سأعود متشردا تافها كملايين التافهين الذين يملأون شوارع مصر .. وما قيمة ثرائى ونفوذى اذا كنت سأدخل قسم البوليس كأى واحد من الباعة المتجولين !!

وبينما كان الضابط يتحدث فى التليفون ، قام عبد العظيم من جانبى وقد افاق من ذهوله ، واتجه الى ايزاك ، وحاول أن يجذبه من ذراعه ، ليحادثه على حدة .. فاذا بالفأر يصرخ فيه ، قائلا :

ــ ابعد عنى .. انت موش يكلمنى .. موش ممكن يكلمنى !!

وازداد التصاقا برجال البوليس ..

ونظرت الى عبد العظيم نظرة صارمة ، آمره بأن يعود الى مكانه ..

لقد اخطأ عبد العظيم فى تقدير الموقف ..

ان ايزاك آخر من يسأل عن هذا الحادث .. انه لم يقدم على فعلته ، الا تحت اغراء شديد .. والاغراء وحده لا يكفى ، بل يجب ايضا ان يستند على نفوذ كبير يحميه من انتقامى ..

وصاحب النفوذ الكبير هو رئيس الوزراء ..

وقد كان بينى وبين رئيس الوزراء معركة مستمرة .. انه رجل اعمال .. صاحب شركة تنافسنى وصاحب مصانع تتعارض مع مصالحى .. وانا احتمل كل شيء فى رؤساء الوزارات الا ان يكونوا رجال اعمال .. الا ان يكونوا منافسين لى فى الميدان الذى اعمل فيه .. لقد تركت لهم دنيا السياسة ، ولم احاول يوما ان انافسهم فى وزارة .. وكل ما اطلبه منهم الا ينافسونى فى تجارة .. انى اقبل ان اتنازل لهم عن نصف أرباحى ادفعها رشوة لهم ولرجالهم ، ولكنى لا اقبل ان ادخل فى منافسة مع واحد منهم ..

ولكن مصطفى باشا سامى ، كان يريد كل شيء .. كان

يريد السياسة والتجـارة .. بل انه لم يشتغل فى السياسـة الا ليربح فى التجارة .. وهو رجل ناعم املس .. كل شىء فيه أملس .. صـلعته .. وبشرته التى لا ينبت فيها شـعر .. وابتسامته .. ونظرات عينيه .. وذكاؤه .. كان كالثعبان يتسلل من حيث لا تدرى ضحيته .. وكنت كلما ضيقت عليه الخناق ، وجد منفذا يتسلل منه الى رئاسة الوزارة .. اذا اقفلت فى وجهه باب الانجليز ، دخل من باب السراى .. واذا اقفلت فى وجهه باب السراى ، دخل من باب الأحزاب الوطنية .. ثعبان يتسلل من تحت قدمى .. وقادر دائما على ان يغير جلده .. انه يوما رجل الملك .. ويوما رجل الانجليز .. ويوما زعيم شعبى يحمله الطلبة على الأعناق !!

هذا هو رئيس الوزراء .. وكان يعلم انى اعمل على اسقاطه من رئاسة الحكومة .. كان يعلم انى اسد فى وجهه الأبواب ، بابا بعد باب .. فدبر لى هذه المصيبة ، ليقضى على قبل ان اقضى عليه ..

المسألة اذن ليست مسألة غيرة على الأخلاق .. والزوج لم يتحرك غيرة على شرفه ، والبوليس لم يتحمس حماية للدين او التقاليد ..

انها مجرد منافسة بين اثنين من رجال الأعمال ، تستعمل فيها كل الأسلحة القذرة .. ولو لم اكن منافسا لرئيس الوزراء .. ولو كنت شريكا له .. لسعى حتى يتشرف بمعرفة عشيقتى ، بل ربما تنازل لى عن عشيقته ، وعين جندى بوليس على بابى يرفع لى يده بالتحية والتعظيم ..

وكانت كل هذه الخواطر تمر بخاطرى ، وانا فى انتظار ضابط البوليس حتى ينتهى من تلقى اوامر رؤسائه .. وكنت احترق من الغيظ .. كانت اعصابى تتلوى ، وعروقى تكاد تنبثق من

تحت لجدى .. وكنت اكرر من تحت اسنانى : « عملها ابن الكلب .. عملها ابن الكلب » !

ورغم ذلك حاولت ان ابدو هادئا حتى لا اضعف امام رجال البوليس ، وسيجارى بين شفتى ، اطرد منه الدخان بعنف ، كأن بين رئتى قطارا يجرى باقصى سرعة .

ووضع ضابط البوليس سماعة التليفون ، والتفت الى قائلا :

ــ وكيل النيابة ، جاى دلوقت !

ورفعت اليه عينى ثم خفضتهما ، دون ان اتكلم .. ان رئيس الوزارة اعفانى من الذهاب الى قسم البوليس .. لم يعفنى رحمة بى ، بل رحمة بسمعة الطبقة التى ينتمى اليها .. طبقة رجال الأعمال !!

وعاد الضابط يقول :

ــ انا آسف يا افندم .. بس انا مضطر اعمل معاينة !

قلت فى برود :

ــ اتفضل !

واخرج الضابط ورقة وقلما ، وبدا يكتب .. ثم ارسل احد جنوده ليأتى له بورق مما يستعمل فى كتابة المحاضر .. وقمت انا لأطمئن على كوليت .. وفتحت باب غرفة النوم .. انها لا تزال فوق الفراش .. عارية .. مغمى عليها !

واسرعت افيقها .. قربت من انفها محلول النوشادر .. ودلكت قفاها بقطعة من الثلج .. ومسحت على اطرافها بماء الكولونيا ..

وافاقت ، وهى تنتفض كأنها عصفورة سقطت مكسورة الجناح ، وقالت وهى تشهق :

ــ ماذا حدث .. ماذا سيفعلون بنا !

ــ لا شىء .. مجرد اجراءات .. لا تخافى شيئا !

وبدات اساعدها على ارتداء ثيابهـــا ، وانا اختـــلس اليها النظرات .. نوع جديد من النظرات ..

احسست ساعتها انى اكرهها .

نعم ، اكرهها ..

تبخرت متعة الشهور الطويلة التى قضيتها معها ، ولم يبق لها منى الا الكراهية ..

وبدات افكر كيف اتخلص منها .. وكنت احسب حساب التحقيق .. وما يعقب التحقيق .. اننا .. انا وهى .. قد نحال الى المحاكمة .. ثم قد يطلقها زوجها .. ثم قد يطالبنى بتعويض ، واكثر من ذلك .. قد تطالبنى بالزواج !!

يجب ان اتخلص منها .. ولكن ليس الآن .. انى محتاج اليها الآن لستر فضيحتنا !

وتركتها وعدت الى الصالة ، وهمست فى اذن عبد العظيم :

ــ شوف الجرايد !!

وهم عبد العظيم بأن يخرج من البيت ، ولكن ضابط البوليس استوقفه ، قائلا :

ــ لو سمحت تستنى لغاية النيابة ما تيجى !!

ولم يخرج عبد العظيم ، انما سحب آلة التليفون الى ركن بعيد وبدا يتصل باصدقائه الصحفيين واصحاب الصحف .. ان لكل منهم ثمنا محددا !

وبدا ضابط البوليس يستجوبنى :

ــ سين .. ما هى العلاقة بين سعادتكم وبين زوجة مسيو ايزاك ؟

قلت فى برود واختصار :

ــ صداقة !

قال :

ــ سين .. كيف عرفتها ؟

قلت :

ــ تدمها الى زوجها ، وحضر معها الى هذا البيت مرارا ..

قال :

ــ سين .. ولماذا حضرت السيدة الى بيت سعادتكم اليوم ؟

قلت :

ــ كانت فى انتظار زوجها !

قال :

ــ سين .. لقد تم ضبطكما بمعرفتى فى غرفة النوم .. فما اقوالك ؟ ..

قلت دون أن اهتز :

ــ كنا نتحدث فى الأعمال !

ورفع الضابط عينيه الى دهشا ، ثم عاد وخفضهما وهو يكتم ابتسامة خبيثة ، عاد يسأل :

ــ ما هى الأعمال التى كنتم تتحدثون فيها ؟

قلت وانا لا ازال ضاغطا على اعصابى :

ــ انها تضارب معى فى البورصة بمعرفة زوجها !

وصاح ايزاك :

ــ موش مضبوط .. الباشا هو اللى ضحك على الست بتاعى .. و ..

ونظرت اليه نظرة صارمة اخرسته .. وتوالت الأسئلة ..

ثم جاء وكيل النيابة واعاد الأسئلة من جديد .. وكتب فى اوراقه اوصافا بذيئة مخجلة للحالة التى وجدنا عليها البوليس ..

وافرجت عنى النيابة ..

وعدت الى القاهرة فى اليوم التالى ..

وانتشرت الفضيحة بسرعة .. لم تكتب الصحف شيئا ، فقد تولى اسكاتها عبد العظيم .. ولكن الفضيحة انتشرت فى اوساط رجال الأعمال ، وفى المجتمعات ، وبين اصدقائى الانجليز ..

ولم يأخذها احد على انها فضيحة خلقية ، بل اعتبروها جولة خسرتها امام رئيس الوزراء .. وهنأوا الرئيس على ذكائه .. ولم يلمنى احد على اتخاذى عشيقة !

وبدات اجراءات التحقيق تسير بسرعة .. بسرعة عجيبة .. ورئيس الوزراء يدفعها كلما تلكأت ..

وحدد موعد لنظر القضية امام القضاء .

وفى خلال ذلك كانت اعمالى قد ارتبكت .. واعصابى كانت اشد ارتباكا .. وتجمع كل رجال الأعمال المنافسين وانضموا الى رئيس الوزراء فى محاولة القضاء على .. لقد وقع العجل — اى انا — فكثرت السكاكين فوق رقبته !

وكان يجب ان اعترف بالهزيمة ..

وقد اعترفت بها بينى وبين نفسى .. لقد كنت عجلا ، ولكنى لم اقع .. انى لا ازال واقفا على قدمى .. وسأبقى واقفا !

وكان رئيس الوزراء يريد بهذه الفضيحة ان يصمنى بجريمة مخلة بالشرف ، فيبعدنى بذلك عن السراى ..

فقررت أن استغنى مؤقتا عن السراى ، واصدقائى فيها ..

ثم كان يريد أن يبعدنى عن اصدقائى الانجليز .. وهذا لن يتحقق .. ان احدا لا يستطيع ان يفقدنى صداقة الانجليز مهما حدث لى .. ان الانجليز لا يفرطون فى اصدقائهم بسهولة .. وهم ليسوا اصدقائى فحسب ، انهم شركائى .. ان رءوس اموالهم تحمل اسمى ، وكل ما يمس هذا الاسم ، يمس رءوس اموالهم ..

ولكنى اعرف ايضا ان دار المندوب السامى لا تحب ان تحرج .. لا تحب ان تقف مكشوفة الوجه فى قضية كهذه ، وتطالب باقالة الوزارة مثلا .. فقررت ان اتحمل الموقف وحدى ، والا اطلب من اصدقائى الانجليز — مؤقتا — الا استمرار علاقتهم بى ..

وجاءت زوجتى بعد أن سمعت بالقضية .. لقد تعودت منذ

زمن طويل ان تقضى اكثر من ستة شهور كل عام فى انجلترا .. وقد قطعت اقامتها هناك وجاءت .. لم تجىء غاضبة ولا ثائرة ، ولكنها جاءت ملهوفة يتقدمها الجزع .. ولم يكن الأمر بالنسبة لها امر اتخاذى عشيقة ، فهى تعلم ان لى دائما عشيقة .. ولم يكن يهمها هذه الفضيحة التى ثارت حولى ، بل كان كل ما يهمها هو تاثير هذه الفضيحة على اموالى .. على شركاتى .. على عملى .. ان كل ما اصبح يربطنى بها هو نصيبها من التمتع بثرائى ..

وكانت اعمالى قد تأثرت فعلا .. كانت أسهم شركاتى قد بدات فى الهبوط . وكنت ادخل البورصة مشتريا لأسهمى ، حتى احول دون هبوط اسعارها .. وقد اشتريت كثيرا حتى كدت اخسر راس مالى ..

ولكن زوجتى وقفت بجانبى .. وبعد عودتها بأيام ، دعينا نحن الاثنين الى حفلة خاصة فى دار المندوب السامى ..

كان مجرد وقوف زوجتى بجانبى ، ودعوتنا الى دار المندوب ، سببا كافيا لانقاذ اسهم شركاتى فى البورصة .. لقد شمت أنوف الثعالب رائحة الحياة تنبعث من اعطافى .. عرفوا انى لم امت بعد .. فارتفعت الأسعار !

والمجتمع .. المجتمع الراقى الذى اعيش فيه .. ماذا فعل بى ؟

هل احتقرنى ؟ هل ادار لى قفاه ؟ ابدا ..

انى لا زلت نجما لامعا .. بل ازددت لمعانا .. ولا زلت ادعى فى كل حفلة ، وكنت اتعمد ان البى كل دعوة .. وكنت اسمع من حولى الهمسات كدبيب الحشرات .. فأشق الصفوف منتفخ الصدر ، فتخرس الهمسات ، واعين النساء تتطلع الى فى شبق وتمن .. تتطلع الى ليلة مثيرة عنيفة تنتهى بتدخل البوليس .. لقد اصبحت دون جوانا مثيرا !

الوحيد الذى احتقــره المجتمع هو .. ايزاك .. ايزاك المسكين !!

لقد هنأ المجتمع رئيس الوزراء على ذكائه .. ولكنه احتقر ايزاك لأنه وضع شرفه فى خدمة ذكاء رئيس الوزراء .. لأنه خالف بذلك التقاليد المرعية بين الزوج وعشيق الزوجة .. خصوصا اذا كان زوجها من صنف ايزاك !

وقد اختفى ايزاك من المجتمع .. ولكنه لا يزال يعمل فى البورصة .. وقد ظهرت بين يديه ثروة هبطت عليه من رئيس الوزراء .. وتعمد بعض المنافسين ان يعهدوا اليه ببعض اعمالهم حتى يحموه من اغرائى اذا حاولت ان اعرض عليه ان يتنازل عن القضية .. عن حقه فى زوجته .. ثم بدأ بعــد ذلك يكون شركة ، ومعتمدا دائما على نفوذ رئيس الوزراء ..

ولم احاول ان اتصل به .. كنت اعلم انى مهما عرضت عليه فسيطلب المزيد .. ومهما اعطيته فان رئيس الوزراء مع مجموعة المنافسين ، وعلى راسهم عبد العزيز باشا مبارك ، يستطيعون ان يعطوه اكثر ..

ورغم ذلك فعبد العظيم لم يؤمن بكلامى .. وذهب يعرض عليه ثمنا لتنازله .. فرفض ايزاك وصرخ .. وراح يقول للناس انى احاول ان اشترى شرفه !

اما كوليت .. فقد اصبحت تعيش وحيدة بعيدا عن زوجها .. واتفقت معها على الا نبدو سويا حتى تكف الضجة ، ولكنى كنت ادفع لها مرتبها الذى تعودت ان ادفعه لها .. حتى تسكت ، وحتى لا تصبح الضجة ، ضجتين !!

واخيرا نظرت القضية ..

وجلست فى قاعة المحكمة مستسلما .. ادير حولى عينين مشفقتين .. ولم اكن اشفق على نفسى .. انما كنت اشفق على القضاء .. وعلى وكلاء النيابة .. وعلى المحامين .. وعلى

الشهود .. وعلى الجمهــور الذى تجمع متلهفـــا كأنه يرقب استعراضا للعرايا .. بل كنت اشفق على القانون نفسه .. كنت اشفق على مجتمع هزيل ضعيف ، لم يعد يملك من أسباب الحياة الا ان يخدع نفسه ، ان القاضى يخدع نفسه وهو يطبق القانون .. ووكيل النيابة يخدع نفسه وهو يدافع عن الأخلاق .. والمحامى يخدع نفسه وهو يدافع عنى .. والجمهور يخدع نفسه وهو يعتقد ان الفضيلة انتصرت على .. والقانون .. القانون ليس الا اداة خداع !

وفتحت الجلسة ..

واستطاع المحامون ان يقنعوا القضاء بأن يجعلوا الجلسة سرية ..

وبدأ وكيل النيابة يتكلم .. قال كلاما كثيرا لم استمع اليه .. ان هذا الرجل الذى يحمل وشاحا فوق صدره ، اول من يعلم انه كاذب فيما يقول ، انه يقول كلاما املاه عليه رئيس الوزراء ..

وسقط راسى فوق صدرى رغما عنى .. وربما ظن القضاة انى خجل مما يقوله وكيل النيابة .. ولكنى لم اكن خجلا .. ولم اكن اسمع ما يقال .. انما كنت ساعتها اتذكر زميلى محمد افندى السيد .. الرجل الطيب الشريف .. وكانت ذكراه تؤلمنى .. تعذبنى .. تحرك الشىء الذى يسكن صدرى ويكاد يكتم انفاسى كلما تحرك .. لعل محمد افندى السيد الآن يعتبر نفسه منتصرا على .. خيل الى انه ينظر الى فى شماتة كأنه يقول لى : « الم احذرك من الطريق الذى تسير فيه ؟ » .. ولكن .. ماذا كان يريدنى ان اكون .. موظفا صغيرا فقيرا مثله .. هل اترك كل هذا الثراء ، وكل هذا المجد ، لانضم للشرفاء .. للفقراء .. خوفا من ان اقدم يوما للمحاكمة فى جريمة زنا ؟ !

وبدأ ذكائى يسخر من محمد افندى السيد ..

وانتهى وكيل النيابة من سرد الاتهام .

وبدأ المحامون يترافعون عنى .. ولم احاول ان استمع اليهم هم الآخرون .. انهم سيقولون كلاما فارغا .. ولو ارادوا ان يقولوا الحق لأطلعوا المحكمة على اسرار المعركة التي تدور بينى وبين رئيس الوزراء .. لقالوا للقضاة انى لم اقدم اليهم لأنى ارتكبت هذا الجرم بالذات ، بل لأنى ارتكبت جرائم اخرى نافست بهـا جرائم رئيس الوزراء .. ورئيس الوزراء يريد ان يكون المجرم الوحيد .. بلا منافس !

ورغم ذلك فانى بعد قليه انتبهت الى كلام يقوله المحامى ..

انتبهت الى ان المحامى لا يدافع عنى .. بل يدافع عن الجريمة ذاتها .. جريمة الزنا !

كان يقول كلاما غريبا اسمعه لأول مرة ..

كان يقول ان الأديان كلها لم تعتبر هذه الجريمة .. جريمة !

فالدين الاسلامى استثنى هذه الجريمة من بقية الجرائم ، واشترط لثبوتها اربعة شهود من الرجال .. اى لو انى ارتكبت جريمة قتل لكان يكفى أن يشهد ضدى رجلان .. او رجل وامراتان .. ثم يحكم على بالاعدام .. اما فى جريمة الزنا ، فيجب ان يشهد على اربعة رجال .. والا .. فلا جريمة !!

ما معنى هذا ؟

معناه أن الاسلام لا يعاقب على الزنا فى حد ذاته .. لا يعاقب الرجل والمراة عندما يتبادلان جسـديهما ، لمجـرد انهما تبادلا جسديهما .. بل يعاقبهما اذا انقلبت جريمتهما الى « فعل فاضح » .. اذا تمت هذه الجريمة امام جمهور لا يقل عدد افراده عن اربعة افراد .. رجال .

وانا وكوليت لم نرتكب فعلا فاضحا .. كنا حريصين على ان نختبىء .. لم نجرح احساس احد .. ولم نزعج أحدا .. لم يكن

معنا سوى عبد العظيم .. وعبد العظيم تنازل عن احساسه منذ زمان طويل ..

والمسيحية ..

ان المسيح له حكمة معروفة .. عندما لجأت اليه امـــرأة خاطئة ، والناس تجرى خلفها ليرجموها بالحجارة .. فحماها المسيح من الناس ، وقال : « من لم يكن منكم بلا خطيئة ، فليرمها بحجر » ..

وسقطت قطع الحجارة من ايدى الناس !

ما معنى الحكمة ؟

معناها ان المسيحية افترضت هذه الخطيئة فى كل الناس .. كل الناس يرتكبون نفس الجرم الذى ارتكبته انا .. فلا عقاب عليه .. الا اذا عوقب كل الناس !

ثم القانون ..

القانون الذى يحكم المجتمع الآن .. ماذا يقول ؟

انه يقول ان هذه الجريمة ليست جريمة فى حق المجتمع .. انما هى جريمة فى حق الزوج وحده . فاذا تنازل الزوج .. فلا جريمة .. ولا حكم .. ولا محكمة .. لو تفضل مسيو ايزاك وتنازل عن حقه فى كوليت .. فانا برىء : فانا رجل شريف .. وكوليت امرأة شريفة !!

ولو انى سرقت من مسيو ايزاك قرشا واحدا .. فان هذه جريمة فى حق المجتمع ، والقانون لا يعفينى من المحـــاكمة حتى لو تنازل مسيو ايزاك عن القرش الذى سرقته منه ، واعطانى فوقه قرشين .. اما لو سرقت من ايزاك شرفه .. فالمجتمع يغمض عينيه ، بشرط واحد .. هو ان يغمض مسيو ايزاك عينيه ايضا !!

هكذا يقول القانون ..

وضحكت بينى وبين نفسى ، وانا اسمع ما يقوله القانون .. ضحكت ساخرا .. ولو كنت اعرف هذا الكلام ، لكتبت عقدا

بينى وبين ايزاك .. عقد ايجار كوليت .. ولرحب يومها ايزاك بتوقيع العقد ..

ولكنى لم اكن املك مثل هذا العقد ..

ومسيو ايزاك .. الفاضل .. لا يريد ان يتنازل عن حقه !

فحكمت المحكمة ..

حكمت على بأربعة شهور سجن .. مع وقف التنفيذ !!

واسرع عبد العظيم يطوف على دور الصحف ، فلم تنشر احداها الحكم .. لم تنشره الا جريدة يومية تنتمى الى حزب كبير .. وقد نشرته لأن عبد العظيم وصل اليها متأخرا بعد موعد الطبع .. ثم امتنعت عن النشر فى اليوم التالى ، بعد ان تفاهم معها عبد العظيم !! ولم يبق الا مجلة صغيرة .. صممت على ان تنشر الحكم ، وعلى أن تستمر فى النشر رغم كل محاولات عبد العظيم .. ولم أهتم بهذه المجلة الصغيرة . لم اكن اعلم ان المجلات الصغيرة يمكن ان تشعل ثورة فى مصر كلها !

وقد أراحنى ايامها صدور الحكم .. كان هـذا هو غاية ما يستطيع ان يصل اليه رئيس الوزراء .. لن يستطيع ان يفعل بى اكثر من ذلك !

وجاء دورى ..

دورى فى الانتقام .. انتقام بلا شفقة !

وكان امامى ثلاثة اعداء :

رئيس الوزراء ..

وايزاك ..

وكوليت .. نعم .. وكوليت ايضا !

وبدات بالأول .. وكان يجب ان يترك الوزارة حالا .. بأسرع ما يمكن .. وقد تركها .. اسقطته .. ضربته بالشلوت !

ان اسقاط الوزارات ايامها لم يكن أمرا صعبا بالنسبة لى .. فقد كان لى عميل من رجال السراى . ولنسمه « صديق » ..

وكنت متفقا معه على ان ينقل الى اخبار الملك اولا بأول ، لقاء ان انقل اليه اخبار المندوب السامى اولا بأول .. وهو يأخذ الأخبار التى ازوده بها ويرفعها الى الملك .. وانا آخذ الأخبار التى يزودنى بها وارفعها الى المندوب السامى ..

ومن السهل دائما تحريف هذه الأخبار ..

فاذا حرفت الأخبار التى تصل الى الملك ، وحرفت الأخبار التى تصل الى الانجليز .. وقعت ازمة .. وتشتد الأزمة .. فتسقط الوزارة !!

وهكذا سقطت الوزارة .. سقطت بعد ان سممت جميع الآبار امام رئيس الوزراء !

ولم يستطع مصطفى باشا سامى ان يعود الى الوزارة بعد ذلك .. الا بعد عشرين عاما !

ثم جاء دور ايزاك ..

انه رجل حريص .. انه يعرف انى متربص له .. ولكن ذكائى لا يرحم .. وقد وجد ايزاك نفسه شريكا لممول سخى .. ممول لم يكن معروفا . ظهر فجأة فى السوق كأحد الوارثين .. واعتقد ايزاك انه وجد فى هذا الممول فريسة سهلة .. لم يكن يعرف انه احد عملائى .. ودفع هذا الممول لايزاك ضعف رأس ماله .. وايزاك فرح بشركته .. ولكن يوما بعد يوم ، بدأ هذا الممول يسيطر على الشركة .. وبدأ يوجهها توجيها تبدو فيه السذاجة ، ولكن كان مصمما على هذه السذاجة .. عنيدا فى تصميمه .. وايزاك يكاد يجن .. ويوما بعد يوم ، بدأت الشركة تميل الى الافلاس ، افلست لحسابى ، واستردت الأموال التى كنت قد دفعتها لهذا الممول ليشارك بها ايزاك ، واخذت معها اموال ايزاك ايضا ..

وخرج ايزاك مفلسا من مصر .. ذهب الى ايطاليا يبحث لنفسه عن زوجة جميلة اخرى ، يبدأ بها الطريق من اوله !

وكوليت .. لقد كانت عبئا ثقيلا يجب ان اتخلص منه ، كانت البقعة السوداء التى تلوث كل حلة ارتديها ..

لقد قطعت عنها مرتبها بمجرد صدور الحكم .. وغيرت نمرة تليفونى السرية التى كانت تتصل بى من خلالها .. واقفلت فى وجهها جميع ابوابى ..

ولكنها كانت كريمة .. كانت لا تزال ملكة .. فاسرعت تتنازل عن عرشى قبل ان اطردها عنه .. وسافرت هى الأخرى الى الخارج .. ولم يكن فى وداعها سوى عبد العظيم .. انها المرة الوحيدة التى اراه فيها انسانا .. ولكنه لم يكن انسانا كاملا .. كل ما هنالك انه اراد ان يتخذها عشيقة لنفسه .. ولكنها رفضت .. انها لا تزال ملكة .. وهو لا يزال خادما .. والخدم اكثر اخلاصا للملكات من الأسياد .. ولكن الملكات لا يتخذن الخدم عشاقا لهن ..

وهكذا انتهيت من انتقامى .. تخلصت من ثلاثة اعداء .. ووقفت اواجه ملايين الأعداء الآخرين ، الذين تعودت ان اعيش بينهم !!

ولكن هل استرحت .. ؟

هل نسيت هذا الحكم الذى اصدره على القضاء ..

ابدا .. لقد ترك جرحا فى قلبى لا يندمل .. جرحا ينزف ألما كلما خلوت لنفسى .. كان هذا الحكم يمثل زلة ذكائى ، كان السبة الوحيدة التى يمكن ان تلاحقنى طول حياتى ، وبعد مماتى . زلة لن ينساها التاريخ ابدا .. سيقول التاريخ عنى انى كنت رجل اعمال ناجح ، محكوما على فى جريمة خلقية .. وبعد اعوام .. بعد عشرة اعوام او عشرين عاما سيظهر كاتب لن استطيع ان اشترى قلمه .. فيكتب قصة هذا الحكم الذى صدر على .. وتمر عشرون عاما اخرى ، ويظهر كاتب آخر ، يكتب